

فالنتین راسبوتین

الحق



دار وادوناه
موسکو

الصناديق المملوءة بالمعلبات او البسكويت او الشكولاته لا يعنى شيئا بالمقارنة مع سقوطه على الشباب اليابانية التي يأتي الناس في طلبها حتى من اركوتسك نفسها ، لا سيما وان لها قيمة خاصة بالاضافة الى قيمتها النقدية . طبعي ان صفائح الادرواز ليست هي التي منعت النار من الانتقال الى هذه المستودعات من خلال السطوح . فقد كان هناك مانع آخر . اشد موضع النار الحامية كان داخل المستودع الابد ، ومن هناك ، كما يستنتج العقل السليم ، بدأت القصة كلها .

بين مستودعات المواد الغذائية يوجد مستودع بعيد ، قرب السياج ، مغطى بصفائح الادرواز ، وهو مستودع خزن اللبني والحبوب .

عندما كان ايفان بتروفيتش يحجب الباحة المنمورة بالقهوة ويشارك متخبطا في تعرجات وانحرافات دون ان يعرف بهم يبدأ حل وجه التحديد نشأت في موضعين فقط مجموعتان من الناس ، احدهما تسحب الدراجات النارية من فوق قواعد الخشبية قرب المهيبة السنتل في الجهة اليمنى ، والاخرى ، من اربعة او خمسة رجال ، تقتلع في الطرف الآخر الواح السقف في وسط المستودع لتقطع الطريق على التيار الكهربائي . حرارة النار القريبة تملح وجوه الرجال ، فكانوا يصرخون بهياج ويقتلمون بهياج ايضا الالواح الهشة السوداء بفعل الزمن ويلقون بها على الارض . تذكر ايفان بتروفيتش الناس في يده . ومن الحكمة ان يلتحق بهم فيسهمهم بفأس . هرع اليهم واكفأ ، وعندما وصل اخذ يفتقر في الاسفل ليخلص من الالواح المتساقطة دون ان

كل الدلائل تشير الى ان الحريق اfdلع من الركن او من مكان قريب من الركن الذي تنفجر عنده المستودعات الى مبنين : المواد الغذائية في المبنى الطول والسلع الصناعية في المبنى الاقصر . وكل مبنى منهما يتصب تحت سقف مستقل مترابط ، حتى اذا شب الحريق في مكان منه احترق المبنى من آخره . وفيما يخص التحوط لاحتمال الحريق منذ البداية دأب الروس على ترك الجبل على الغارب دون قطة او تفكير مسبق ، فهم يتأسفون على الاحداث بعد فوات الاوان . يشيدون الباقى دوما ليمشوا فيها براحة ويستمعوا بها دون ان يوفروا مستلزمات الصيانة والنجاة باقل جهد وافضل صورة . وعندما شيدت هذه البلدة بمتى الاستجمال لم يفكروا طويلا بالطبع . فالذي ينشأ النجاة من الماء لا يفكر في النار . اما اشتعال النار في الركن بالذات فهو دليل على ان المصادفة المنحوسة او الشخص الذي اشعل النار ، اذا كان قد اشعلها شخص ما وليس المصادفة المنحوسة ، انما يتحل بالفطنة والتفكير المسبق .

فقد شب الحريق وانساب في اتجاهين رأسا . التهمت النيران مستودعات المواد الغذائية من السطوح بسرعة بالغة وطفقة مرعبة وكان احدا قد نثر البارود خصيصا عليها . لم يتسن الوقت لتنطية تلك السطوح بصفائح الادرواز . فقد جلبوها في الخريف ورسفوها على امتداد السياج وظلت هناك حتى الآن . اما مستودعات السلع الصناعية فسطوحها مغطاة بالصفائح منذ عامين . والمطر عندما يتساقط على

يدرك بعد من اية جهة يصعد اليهم . لم يعد دماغه يفهم شيئا ، ولم يخطر على باله شيء . ولما رأى من جهة السياج الايسر شخصا يخطو مسرعا على السطح ، مفارقا بين ساقيه على كلا منحدريه اسرع الى هناك ولم يعد يقرع نفسه بالكلمات الثابتة ، فلا مجال للكلمات ، بل راح يلهث مستميتا ، استجابة لسخوفة الموقف ، وكأنما يصب جام غضبه ولعنااته على بلاده وغيباته . ألم يكن قبل حين رجلا كسانر الرجال ؟ اما الآن فلم يبق له من الرجال سوى البشرة .

فوق السطح كانت القيادة بيد افونيا برونيكوف . فتمتعا مرع ايفان بتروفيتش اليهم سمع صوته يأمر شخصا ما بأن ينزل الى تحت ويبحث عن عتلة او قضيب حديدى على الاقل يقتلون به الالواح . وتنفس ايفان بتروفيتش الصعداء فى الحال فمن حسن الحظ ان افونيا موجود ، كما ان هناك شخصا آخر يركن اليه هو سائق الجرار سيميون كولتسوف . صحيح انه ليس من ابناء هذه الانحاء ، لكن ايفان بتروفيتش عمل معه ذات مرة ، ويعرف انه رجل يركن اليه .

وعندما رأى افونيا الغاس فى يد ايفان بتروفيتش انبسطت اساوره :

— جانا اخيرا رجل ذكى . فالآخرون اسرعوا الى الحريق بأبدي خالية وكانهم ذاهبون الى وليمة .

طلب من ايفان بتروفيتش ان يقف عند الطرف المطل على الباحة ، نجال هذا يبصره لحظة وشرع يفتلح الالواح هناك . وفى الطرف الآخر العلوى للسطح المنحدر ، وقف افونيا نفسه وأخذ يفتلح من خشبة الى اخرى ويزحزحها ويدق

السطح من تحت بهلق كالمطرقة . وفى الوسط كان سيميون كولتسوف يعمل بفأس اخرى . كان يعمل على هذه الجهة وعلى الجهة الثانية من السطح المنحدر ، وفى الجهة المقابلة لنهر انفارا . ومع انه عادة قليل الكلام باره الاعصاب ، فقد انساق للهاج هذه المرة وراح يصرخ بوحشية وبلا كلل وهو يحطم الاخشاب من اليمين واليسار . ورغم انشغال ايفان بتروفيتش وانهماكه فى العمل تمكن ان يفكر بأن الانسان لا يستطيع ان يصرخ بهذه الصورة ويلفظ نفسه من داخلها الا عندما يتقحم فى الهجوم ليقتل العذر او يسطر لقتدير كما يفعلون الآن ، فالانسان لا تسول له نفسه ان يجأ كالحوش الكاسر عندما يزوع القمح ، مثلا ، او يحش الاعشاب للماشية ، ومع ذلك نحسب ما مضى من قرون على حالة الانسان القديم . مضت القرون ، لكن تلك الحالة لا تزال باقية فى الروح .

عندما التحق ايفان بتروفيتش بالرجال كانوا قد كشفوا من السطح زهاء اربعة امتار . وبمساعده عملوا بصورة اسرع وانلحوا فى مهمتهم . فاللهيب الذى شق دروبه الساخنة السريعة فى الطبقة الداخلية من السطح المنحدر تشر وارطم بالفراغ ، ثم شق الى اعلى وارغم الرجال بساره الالواح القريب على الجلوس ، لكنه عجز عن تجاوز الهمة المغنورة ، فقاد ادراجيه ومضى ليجهز على ما تركه ، فى عجالة ، من هشيم نائفت سويج الاشتعال . وانبعث اللهبان من عوارض السقف ، لكن النار لم تشتعل فيها . كادت تشتعل فى بعض المواضع ، وكان لسترة افونيا القطنية المضربة دور حاسم فى اطفائها .

تيقن ايفان بتروفيتش من جديد ان افونيا انسان متفان
مستحيث ، ففى من ابناء القرية القديمة الغارقة تحت الماء .
لم يمد الآن فتى بالطبع ، فهو رجل من زمان .
انكبوا على العمل من جديد ، وهم يتلفتون الى الوراء
بمزيج من الحذر والخوف . عاد الفتى الذى ارسلوه لاحضار
القضيب ، وبدلا منه جاء بنبا جديد : انتشلوا دراجة
« اورال » محروقة . وهى دراجة نارية ذات عربة يعتبرها
العاملون فى مؤسسة الاخشاب اثمن من سيارات « لادا » .
هذا الفتى يكاد يكون مرونا ، كما هى الحال مع الكثيرين
من جاموا الى البلدة من مختلف الانحاء واقاموا فيها امدا
طويلا ، لكنهم لم يصبحوا مروفين . وصاح الفتى بغضب
واستنكار :

- خباؤا الدراجة عمدا ، فلن غباؤها ؟ لمن ؟ سألت
كاتشاييف قبل ايام : عندكم « اورال » لبيع ؟ فأجاب :
كلا . فى حين كانت عندهم دراجة .
وبادره افونيا لاثما :

- هل بحث من القضيب ؟
- ليس هناك اى قضيب . لا شىء هناك - زعم الفتى -
انظر بنفسك : حتى النساء اسرعن بدلاتهن ، اما صهرينج
نقل الماء فلم نعر عليه . النساء يتلقن الماء من النهر بالدلاء .
الماء بالدلاء لاطفاء هذه النجم ؟ ما الفائدة ؟ لو وقفنا فى
صف واحد وبصقنا عليها لكان ذلك اكثر فائدة .

طلق الفتى يتكلم زاعما وقال انه كان من اول الذين
اسرعوا الى هنا ، وحاول ان يستخدم الطفلايات دون جدوى :
- اضبط عليها بشدة فلا يخرج منها شىء . لا زفر ولا
صابون . ربما جفت او انتهت .

كان يزعم من وراء الظهور . فقد كلفه الهونيا بان
يحسبهم من الخلف بنفس تلك السترة المضربة . وبدأ هذا
الصوت السقطع الذى يملو وينخفض وسط الجهود المحمومة
فى مكافحة الهيب نظيما بعض الشىء ، حتى خيل لايفان
بتروفيتش انه صادر عن الجدران نفسها وليس عن انسان
قريب يكاد يختنق بالدخان اللاهب . وبعد ذلك ، خلال
المساء الساخن الطويل الذى اكتنفه الليل اخيرا ، خيل
لايفان بتروفيتش وهو يسمع اصواقا تنادى وتتصايح لتخبر
بشئ او تطلب شئ ، ان الجدران والارض والسماء والشواطي
تتكلم بالفاظ بشرية حتى ينفهمها البشر .

اتخلع ايفان بتروفيتش القروح الاخيرة والذى به الى تحت
وتلفت حواله فرأى الهيب فى الخلف يرتفع عاليا وينير
الباحة بضوء ساطع ويتراقص ويغيه برشقات حريفة على
سطوح المنازل القريبة . كان الصبيان يتراكمون صائرين
فى الباحة . وامام مستودعات السلع الصناعية تتراكم وتتصايح
اشباح بنورها الهيب فيجعلها شغافة الى ابد حد وهى تعوم
فى رقصة متناحمة جنب النيران . كان الهيب هناك نظيما
بالسته الطويلة الساطعة التى تنبجس من تحت السقف
وتجمل الناس ، كما فى دهكة حقيقية ، يتراجعون ثم
يتقدمون من جديد : « غربنا الدخن بالفريل ... حال
العال » .

واخيرا وصل المسؤولون . وقف جنب مدير القطاع فى
وسط الباحة كبير مهندس مؤسسة الاخشاب كوزيلتسوف
وأفنا يلوح بيديه ويشير الى البلدة .

وكان المدير بوريس ليموفيتش ينصت اليه ولا يسمعه ،

فهو يعطى اشارات لشخص ما تعنى شيئا واحدا لا غير :
هيا ، هيا ... وفجأة رأى جرارا مندما الى الباحة فهرع
لقائه .

تجمهر جمع فقير ، ربما كانت البلدة كلها قد
تحشدت . ولكن لم يظهر ، على ما يبدو ، شخص يتمكن
من تنظيم هذه الحشود فى قوة صلبة حكيمه قادرة على وقف
زحف النار .

اكواخ البلدة ومنازلها التى انارتها حالة الحريق لمسافة
بعيدة ، وسلطت عليها نظرة رهبة ، انصقت بالارض فى
خوف واهل . جال ايفان بتروفيتش يبصره فى تلك المنازل
ليقدر المسافة فشر على سطح منزله بينها ، وتذكر ان الخطاف
الذى هم بأمر الحاجة اليه موجود فى الدهليز . فليل يومين
غيباء هناك بعد ان نبش الثلج به ليسهل الدوبان .

4

هذه البلدة مشوشة وغير مريحة . فلا هى مدينة ولا
قرية . انها اشبه بموضع حل فيه بدو وحل ليأخذوا قسطا من
الراحة فى انتظار تحسن الطقس فظلوا فيه مكرهين . ظلوا
فيه ينتظرون امرا بالتحرك ، فلم ثبت لهم جذور ولم
ينظموا حياة مقبولة توفر اسباب الراحة للابناء والاحفاد ،
كلما يريدونه ان ينقضى الصيف بسلام ، وينقضى بعده
الشتاء . وفى تلك الاثناء كان الاطفال يولدون ويترعرعون ،
ثم يتزوجون ويولد لهم اطفال وجنب هذا الموضع نمت
وتوسعت مواضع اخرى ، فشد اليها الناس الرجال وسطوا فيها

الى الابد ، اما ذاك فقد ظل على حاله ، ظل بمثابة محطة
حل الطريق وأوى وتقى سيهجره اهله هذا او بعد غد . وعندما
يسمع ايفان بتروفيتش فى الليل مكان المحطة الكهربائية
تعمل ليل نهار يخيل اليه ان هذه البلدة التى لا تنطفى
محركها تقف دوما على اهبة الاستعداد .

فى مجلس البلدية مخطط للبلدة : شوارع مستقيمة ،
روضة اطفال ، مدرسة ، دائرة بريد ، مكتب مؤسسة
الاخشاب ومكتب القابات وفاد وحوانيت وكراج وخزان مياه
ومخبر - اى كل ما تتطلبه الحياة العادية . الشوارع مستقيمة
وعريضة بالقفل . فى حينه التزموا بالخط انذى شيدت عليه
الننازل . وانتهى النظام عند هذا الحد . فالشوارع العريضة ،
خللا للمادة فى القرى ، حطمتها الآليات الثقيلة لدرجة تفوق
التصور . عندما يسوء الطقس فى الصيف تمجن شاحنات
الاخشاب والجرارات الاحمال فيها حتى تتحول الى زبد
ايضى حل سواد يسيل موجات ثقيلة على الجانبين ويعصف
محموجا فيما بعد فيغدو تضاريس صحيرية هى الجبال بعينها
بالنسبة للحياتى والشيخ . كل عام تجبى البلدية روبلا
من كل منزل لترميم الارصفة ، وكل عام يجرى ترميمها ،
لكن الربيع يأتى وتستدعى الحاجة نقل الاصطبا الى الننازل
فلا يبقى من الارصفة بعد ان يسحبوا عليها جلود الاشجار
الا الحطام . ولا احد يفكر فى ترميمها فى الصيف ، فالجميع
أفذاك فى شغل شاغل . « فريق الارصفة » يباشر عمله فى
اواخر الخريف ، فتبقى تلك الارصفة فى حلتها الجديدة
العفراء ، وفادرا ما تدوسها قدم انسان ، طلال ثلاثة او اربعة
شهور مغطاة بالثلوج حتى فبراير او مارس ، لتهلك من

جديد عثا ، تحت جنازير الجوارات وتقل جلود الاشجار غير المشددة . وفي اغلب الاحيان يجرى عمل بقايا هذه الارصفة تشذيب تلك الجلود ونشرها وتقطيعها . ولا تمنع هذا الدمار اية مراسيم او عقوبات .

البلدة عارية سافرة ، عمية جامدة لدوجة تجرح النفوس . فيندر ان تجد في جنيته احد المنازل شجرة يتولا او غيراه تسر الانظار . نفس الاشخاص الذين انتقلوا الى هنا من قراهم القديمة وما كان يوسعهم ان يتصوروا الحياة فيها بدون اشجار وخضرة تحت النافذة ، اهلوا الجنيات والحدائق المنزلية هنا ، لفسار الشارع بجار ويبص في نوافذهم دون حياء . وفي هذا المجال ايضا لم تجد نفعا كل الایمازات بخصوص التشجير . ولعل الناس ، والحق يقال ، يقطعون الاشجار كل عام في مئات الهكتارات من غابات اتاينا ويحرقون مساحات شاسعة ذات البمين وذات الشمال فلا يبقى لهم وقت ولا تحلوهم رغبة ليشعروا انفسهم بشجيرات البلطة من هبات الريح وفضول السابلة ، ولسان حالهم يقول : انظروا ، تلك هي حياتنا ...

باختصار ، كل المشكلة في مؤسسة الاخشاب . فهي السبب في الكثير من البلايا والزوايا . قطع الاشجار ليس كفوس القمح ، حيث تكرر نفس الاشغال والهموم من موسم لاخر ، ومهما عاش زارع القمح لن يكفيه الوقت لكل تلك الاشغال . اذا قطعت الاشجار لن يثبت غيرها الا بعد عشرات السنين . وفي ظل التكتيك الحديث ينتهي العمل في قطعها في سنين . وبعد ذلك يرتحل العاملون من اماكنهم ناركن البيوت والحظائر والحمامات الخشبية ، وقيود

الآباء والامهات ، وسنى العمر ، يرتحلون على الشاحنات والجوارات الى الاماكن التي لا تزال فيها غابات واشجار . ويبدأون هناك من الصفر . ايفان بتروفيتش يمر جنب بيربوفسكا ، بالطريق النهري صيفا وبالطريق البري ، على الجليد ، شتاء ، وينطلق كل مرة ، بحيرة واكتشاب ، الى المنازل المهجورة فيها . كانت هناك مؤسسة للاخشاب مثل هذه ، انتهت اعمالها وارتملت ، وغلت البلدة المهجورة فلم يبق فيها بشري واحد . لا احد لغير السياح الذين يشعلون المواقد في تلك المنازل كالابالة ويفتحون ابوابها ليخرج منها الدخان .

نفس المصير ينتظر بلدة ايفان بتروفيتش آجلا ام عاجلا . حاولوا ، قدر الامكان ، ان يؤجلوا هذا المصير ، ولكن هل يستطيعون تأجيله الى ما لا نهاية ؟ .. قبل صبعة احوام اقتطموا الاشجار من كل القطاعات المقررة لهم ، وانتقلوا الى قطاع كبير وواء النهر . وبعد خمس سنوات جمعوا كل ما يمكن جمعه من الاخشاب هناك . وبعد ذلك طرحت بكل حدة مسألة مصير البلدة : هل تبقى ام تزول ؟ وقرأت الاجتماعات في مركز الناحية والمحافظة والادارة وقرروا اخيرا الابقاء على البلدة . توجه العاملون من جديد الى قطاعاتهم القديمة الخالية ، وصاروا يقطعون كل ما تقع عليه ايديهم ، بعد ان كانوا فيما سبق يتفنون الاشجار للكمينة كالصنوبر والشربين (وفي بعض الاوقات يسمون البتولا والحدود بالبيدات الكيماوية كيلا تراسم تلك الاشجار) . وظهرت آليات جديدة لا تترك ولا تذر . فلا شجرة تبقى بعدها . فالقلاية عندما تصل الى اعماق الغابة

لنقل الجلود المقطعة تدوس وتطمر كل ما تصادفه في الطريق .

لن يدوم هذا العمل « التمشيط » أكثر من ثلاثة أو أربعة ايام . وماذا بعد ؟ يقال ان فرق العاملين ستقوم ، على غرار الاعمال الموسمية في سالف الزمان ، برحلات في نوبات طويلة الامد لمسافة عشرات الكيلومترات ، ثم تعود الى الديار لتأخذ تسطا من الراحة بعد العمل . وستقسم الى شطرين : اسبوع للعمل في مؤسسة الاخشاب واسبوع للأسرة ، وفق جدول ثابت لا مجال فيه اطلاقا للتدخل بين الحياة الاولى والثانية .

وسيم ذلك فعلا .

كيف لا وهذه الانحاء لا تعرف عملا آخر غير صناعة الاخشاب ؟ الحقول والمروج التي اعتاش عليها الناموس في زمن ما افرقت ببناء المحطة الكهربائية ، ولم تبق الا الغابات . هل المخطط في مجلس البلدية نقطة تشهر الى التنادي . وهو موجود منذ عشرين سنة في مبنى الحمام العمومي الذي جلب من احدى البلدات المهجرة . لا بد من بناء ناد جديد ، ولكن كيف يبنى اذا كان احد لا يعرف شيئا عن المستقبل حتى الالوة الاخيرة ؟ وفي المخطط روضة اطفال . مغلقة . لما كان احد يعرف هل هناك ضرورة لترميمها ام لا . وعندما اقتضت تلك الضرورة لم يستعمل احد لترميمها . فلا مسائل ولا مسؤول عن تنفيذ او اكمال هذه المشاوير . فكيف تريدون لهذه البلدة ان تبهر جميلة ، وخصوصا في دخان الحريق ؟ !

فقر ايفان بتروفيتش الى الاسفل وركض الى المكان الذي رأى فيه قوا مدير القطاع بوريس تيموفيتش ، وكان قد تشاجر معه بحددة قبل خمسة ايام عندما رفض هذا الاخير طلبا تقدم به لاعفائه من العمل . الا ان ايفان بتروفيتش يعلم علم اليقين ان مدير القطاع هو الشخص الوحيد الذي يمكنه ان يقوم الآن بما لا يستطيع القيام به لا كبير المهندسين الذين انتقل اليهم قبل ستة اشهر من المؤسسة المجاورة بمنتصب مهندس الامن الصناعي ، ولا المدير العام لو كان موجودا هنا (فقد ارتحل لحضور احد الاجتماعات) ولا نائبه . لا احد يستطيع القيام بشئ هنا سوى بوريس تيموفيتش ، فقد تضلع في هذا العمل وهو الكهل النشط الذي يمد ما تبقى له من ايام يوما بعد يوم قبل ان يحال على المعاش . لم تكن تربطه علاقات روية بالكثيرين ، كما ان الكثيرين لم يكنوا له الولد ، وهو غاضب حابس دوما ، يمكن ان ينهر الآخرين دون روية او تبصر ، ويمكن ان يمدح ايما كان بدون روية او تبصر . لكن ذلك كله مجرد حجاب شبابي يضل البادئين الذين لا يعرفونه . اما الذين يعرفونه جيدا فلا يعابون بتجاوزاته العابرة وصياحه الرقشي ، لانهم متأكدون ان بوريس تيموفيتش فوليكونف رجل طيب يدرك في دغيلة نفسه حقيقة الناس وقبحة تصرفاتهم ، ويؤدي واجبه ، حل قدر الاسكان ، بالشكل المطلوب . ظل مديرا للقطاع منذ اليوم الاول لبناء البلدة دون ان يرتقى درجة او يهبط درجة . وهذا وحده

يدل على انه شخص لا يمكن الاستغناء عنه مع انه غير حاصل على التعليم العالي وربما حتى الثانوي . وما اصعب تبسيط الامور في القطاع المركزي على مرأى من رئاسة المؤسسة التي تتدخل في كل الصفات ولا تتنازل عن شيء . ارفعهم بوريس تيموفيتش سائق الجرار الشلل على المودة ، ثم مضى الى كومة وسط الباحة يتجمع فيها ما اسكن انفاذه من موجودات المستودعات . واسرع اليه ايفان بتروفيتش ، لكنه لم يجده هناك . الفى نظرة زائفة على الكومة : جزومات لبادية متشرة هنا وهناك وكان الذين همروا لاطفاء الحريق خلعموا واقفوا بها كيفما اتفق ، حفاظ مدرسة وبزات تلاميذ ملفوفة في صرر ، مناديل صوفية ، بناطيل قطنية ، حلب الله يعلم بما فيها ، وعلى مسافة ابعد دراجات قارية من طراز «جاوة» القيت عليها دراجة اخرى مع عربتها المحترقة . وهى بالفعل دراجة «اورال» السالفة الذكر . اجل مستير هذه الدراجة فسجة بين الرجال ، ولن يتسامحوا مع مدير شعبة التوزيع بسببها . وعلى العموم ، ماذا سيحصل لمدير الشعبة بعد الحريق ؟ ابتسم ايفان بتروفيتش ساخرا من مذاجه ، فهو واثق تماما ان المدير لن يتضرر ، لان امثاله لا يتضررون ولا يهابون اينما كانوا .

- ايفان ، يا ايفان - بلغه فجأة صوت أليونا . ركفت محتضنة مجموعة من اللعب ، ثم وضعنها برفق على الارض وهى تبحث لها عن موضع انظف وافضل - ايفان ، ماذا يجري يا ايفان - صوتها متقلل يكاد يقرب من الراح المحتد ، وحياتها مشوهتان مستديرتان على نحو غير طبيعى حتى بدتا

وحشيتين - كل شيء سيحترق . ما اكثر الخيرات هناك ! ما سبب اهاننا يا ايفان ؟

واستدارت دون ان تنتظر الجواب ، فما كانت بحاجة الى الجواب ، وعادت ادراجها مسرعة بخطوات متقاربة وبدنها الذى فارق الشباب يميل من جانب الى جانب وكأنها تكاد تسقط مع كل خطوة وتساك نفسها مع الخطوة التى تليها . شيعها ايفان بتروفيتش باهتمام عابر ، الا ان الامور اختلطت في ذهنه الفائم حتى كاد يتسائل : « من هذه ؟ هل هى من معارفى ؟ » - لكنه تمكن من التوقف وحمل نفسه على تذكر زوجته أليونا وفكر بأنه لا داعى لان تركض بتلك السرعة ، وفى الحال نسى وجودها .

فقد رأى بوريس تيموفيتش . قبل هتية سمع صوته وصياحه ، وتابع ذلك الصياح حتى وجد صاحبه وسط حشد مضاء متجمد على نحو غريب ، بلا حراك تقريبا ، قرب اول مستودع المواد الغذائية يمتد من الركن . كان الناس قد تمودوا على صوت المدير الذى يرتفع وينخفض بين النبته والفتية ، لكن صياحه الآن صياح مجنون لا يفقهه الآخرون . وادرك ايفان بتروفيتش من الجواب الذى جاء واضحا رغم حقته - فالجميع محتدون منفلتون بسبب الحريق - ان مسؤولة المستودع فاليا هى التى تخاطب المدير :

- لن انتح - اجابت بحدة - اطفئوا النار ، ولن انتحه .

- سيحترق يا بنت الكلب .

- اطفئوا النار . لست طفلة صغيرة . رأيت كيف صرخوا سلع كلافيا ، فهم يسرقون كل شيء . والبيع التى

تحت مسؤوليتي اكثر من مائة الف روبل. من اين ل هذا المبلغ عندما يطالبونني به فيما بعد؟ من اين؟

- سيحرق - زعن المدير .

- اطفئوا النار ، انا غير ملزمة بأن افتح المستودع

ليسرقوه . اطفئوا النار .

ونشجت متحبة .

هم ايفان بتروفيتش بالذهاب الى المدير ، لكن هذا استداع بنفسه صوبه ، وعلى الاصح صوب كوة السلع التي كان ايفان بتروفيتش لا يزال يحوم حولها . ولحق بالمدير عدد من « المرابيد » ، وهذا هو الاسم الذي اطلقه اهال البلدة على العاملين الموسمين ، وكانوا يتوقعون صدور اوامر . وبالفعل ، فقيل ان يصل بوريس تيموفيتش الى الكوة بخمس او ست خطوات صاح دون ان يلتفت الى الوراء ، فهو واثق من انهم يسمونه ويفهمونه :

- اخلعوا الباب .

عاد المرابيد مرممين ، فهذا العمل يروق لهم .

- اين كاتشايف؟ - صاح بوريس تيموفيتش مخاطبا

ايفان بتروفيتش - اين ذهب ، اين الكلب ؟ هذه مستودعاته فآين هو ؟

كاتشايف مدير شعبة التموين ، وبوريس تيموفيتش يعلم علم اليقين انه ارتحل الى المدينة قبل يومين ، مع المدير العام لمؤسسة صناعة الاخشاب ، لحضور اجتماع دورى . اجل ، بوريس تيموفيتش ضل ، والا لما تصايح وصار يهدد حتى الاشباح والظلال . وكان هناك مبرر للانفعال ، فالمره ينسى حتى نفسه ويظل يبحث

عنها ، وليس عن كاتشايف فقط . فما حدث لم يسبقه منيل في هذه الانحاء .

تطلع ايفان بتروفيتش في وجهه الاسود المتحشف كالمحروق بأفنه المدبب الثانى ووجتيه الفاترين ، ونسى نهائيا ما يريد منه وما جعله يبحث عنه ، وقال له ما ينبغي ان يفعله الآن ويتطلبه الموقف فى المقام الاول :

- اطلب من المم ميشا خامبو ان يحرس البوابة ، وليقف معه الحارس ايضا ، فهذا واجب . لكن المم خامبو يجب ان يأخذ الخفارة . رأيت قبل قليل هناك ، الى اليمين . هرع فودنيكوف الى الجهة التي اشار اليها ايفان بتروفيتش دون ان يلتفت اليه ، بل وربما دون ان يفهم بأنه يتصرف وفقا لتوجيهه . لاحظ ايفان بتروفيتش كيف اوضح المدير للمم ميشا خامبو على عجل ما يراد منه واقتاده بسرعة الى البوابة . وردا على ذلك رفع خامبو رأسه الاشبب للكبير ومال به الى الوراء ثم انحنى انحنا طائفة وارما محققا فى الجمهور المتحشد قرب الحريق ليتأكد من الاشخاص الذين ينبغي عليه ان يراقبهم بخاصة . يدهى ان الخفارة تناسب المم ميشا ، فهو يمكن الاعتماد عليه . وسرولة المستودع فاليا محقة فيما تقول . وخصوصا عندما سيقفون مستودعات المواد الغذائية ...

وبالفعل خلعت المزاييح بزمجرة وصرير ، وراحت فاليا تنوح وتندب ببأس وقنوط بعد ان فقدت رثدها للمصيبة التي انهارت عليها ولم تد ترى وسيلة للنجاة طبعيا لا فى احراق محتويات مستودعاتها ومى مغلقة ولا فى اخراج تلك المحتويات . فتحوا بابا ، ثم آخر ، اما الباب الثالث

فلم تخلع مزاليجه . اقتلموا قفله الفسخم بالأس . وكان المرايد يسلمون بسرعه وشطارة وكأننا قضوا حياتهم كلها فى خلع المزاليج واقتلاع الاقفال . وعندما هرع ايفان بتروفيتش الى هناك ارتطم بأحدهم فى الباب المشرع فى المبنى الايمن الابد ، وهو ساشا التاسع (والثاسع لقبه وليس رقمه ، فان كل الامور مقلوبة رأسا على عقب عند المرايد ، حتى الالقاب البشرية عندهم لا تشبه القاب البشر) . كان ساشا مرحا متحمسا مهتاجا ، فطيطب على كتف ايفان بتروفيتش بحركة ماهرة اداوته صوبه رأسا وصاح بوجهه فى تهور اقرب الى الود :

- لا تدخل ، لا تدخل ايها السيد المحامى فمن يدافع من حقوقنا اذا احترقت ؟ !

كانوا يسمونه بالسيد المحامى لانهم ذاقوا طعم الحياة المقتنة المقيدة او لانهم يقتلون من ذاق طعم تلك الحياة . وقد تمود ايفان بتروفيتش على هذه التسمية . قالوت ، على ما يبدو ، يجهل الناس يتمودون على ما لم يكن بالامكان حتى تصوره قبل حين . فقد تمودوا ، مثلا ، على ان الارض تنور تحت الاقدام ، كما حدث لهم وفى منطقتهم بالمعنى الحرفى للكلمة .

٦

مضت عشرون سنة منذ ان جاءوا الى هنا ، اكثر من عشرين . ولعل الارض نفسها قد مالت خلال هذه الفترة صوب الجهة التى اثقلوا اليها ، لكن ايفان بتروفيتش

يتذكر قريته القديمة فى كل يوم من تلك الفترة . يتذكرها كلما يلقى نظرة عفوية او متعمدة على الماء الذى ظلت تحته بقعة من الارض دفأتها القرية طوال ثلاثة قرون . يتذكرها بصورة شاطفة ويوسى صوبها ماشيا وكأننا يحيى شخصا . ويتذكرها فى تأملاته الطويلة المتكررة ويحاول ان يفهم ، من خلال المقارنة ، ماهية الحياة التى كانت هناك ، وما توصلوا اليه هنا .

حتى لقب ايفان بتروفيتش كان جزءا من قريته يحصله معه اينما حل وارتحل . فهو ينوروف وهى ينوروفكا ، ينوروف من قرية ينوروفكا ، او على الاصح ينوروف فى ينوروفكا . لم يكن قد غادر قريته لاند طويل الا مرة واحدة ، عندما التحق بالجهة . سارب ستين ، وبعد التمر خدم وهو اعزب ، سنة اخرى فى مواقع الدفاع فى المانيا نفسها ، حيث قاده البصير اليها فى دبابه « ت - ٣٤ » . وعاد الى الديار فى شريف ١٩٤٦ . ومن ذلك الحين يحتفظ بالشعور الذى رأى فيه آنذاك قريته ينوروفكا بعد الفراق : يا الهى ، القرية نائمة وليست قائمة . لاحت له ضيعة مغبونة اشد الغبن . ما اكثر ما رآه ابان الحرب ، رأى التماسه والفاقة والويلات . كل شئ يصرخ ويجأ من الالام ويلبس النجدة . الدمار والخراب فى كل مكان ، لكن الاحل يلوح حتى فى اكثر الانقاض رهبا ، فستعود اليها الحياة يوما ما وتنهض بسر الزمن وتتوفر الايدى ، فلانسان لا يطيق الخراب . اما هنا ، فى القرية ، فقد ظل كل شئ دون تغيير وكأننا تجسد وتوقف الى الابد ، دون زيادة او نقصان ، وكأن الزيادة محظورة على هذا المكان .

وهذا ما حصل بالفعل فيما بعد : فقد عاشوا فيها خمسة عشر عاما أخرى بعد الحرب ، لكن تفصيلها ظل كما كان عليه من اربيعين منزلا لا غير . ظل فئاتها المهلهل هذا على تفصيله دون ان يضاف اليه حمام واحد او حظيرة واحدة . صحيح ان اهالى القرية عرفوا سيقا باغراقها ، ولم بعد هناك موجب لبناء جديد . كل ما عليهم ان يشدوا الرحال فى كل الاحوال ، فاما ان ينتقلوا المنزل الى التلة التى يجسمون الفطر على منحدراتها او ينتقلوا فى اثر ابائهم وينათهم الى المدينة الصغرى .

آنذلك ، بعد التسريح من الجيش ، وصل العريف الضوار ايفان يفوروف فى خيوة رجال الدبابات والاورصة على صدره ، بعد ان رأى من العالم ما رأى . وما ان انتهت ولائم الاستقبال حتى شمر بالضجر كما يتذكر الآن . لا جدال فى ان هذه القرية موطنة وسقط رأسه . كل حجر فيها كان يشمر به ويتنظره حتى قبل ان يولد ، وكل حبة هنا تحمل له مع تباشير الربيع ما يحذره ويستده ويقيه من تقلبات الزمان . كل شيء هنا يتابع حركاته وسكناته بنظرة هادئة حنون . ولكن حالما يفكر ويتأمل يرى كل ما حواله يتكرر دون اى تغيير ، حتى خيل اليه فى الايام الاولى انه عاد من الحرب الى هنا ليموت ميتة الطليعية . لكنه تردد واحجم ، وهو فى غمرة تأملاته ، وبينى ذلك ان الخيار الذى اقدم عليه جاء لصالح يفوروفكا . وسرعان ما تفتت للجماعة ، والتخلص منها هنا ، جنب انقارها وغابات التايغا اسهل على اية حال . وبعد ذلك وقعت انظاره على أولينا فى القرية المجاورة . كانت تحملت فى دون

دهاء او شطارة فتشع عينها الواسعتان اصلا . وعندما امسك بيدها لأول مرة ارتعبت لدرجة جعلته لا يفكر فى البحث عن فتاة اخرى . وسرعان ما استلم الكولونوز شاحنة جديدة لم يكن هناك شخص يقودها غيره . وبعد قليل لازمت امه القراش بمرض عضال ، فاعترض المصير طريقته ومنه من الرحيل . وسجرت حياته على منزلها مثل سائر الناس : اطفال وصل وانعطاف حذر بلى نحو عيشة اسهل واكثر مراحا .

ولا نقول ان ايفان بتروفيتش اذعن للواقع وتمدد عليه ، لكنه تنفس الصعداء وكأنما تخلص من القنوية التى صادفها بعيدا عن قريته وافلت من الشيطان الذى كان يفره فى الرحيل بوهود غامضة . والحر يتصور النسيم فى كل مكان ما عدا المكان الذى يتواجد فيه . ولعل اهم ما فى الحياة ان يتخذ كل شخص ، فى المكان المقرر له ، اتجاهها قويا ولا يفضل الطريق ولا يجزئه بمقد يشدها فى كل قفزة او نقلة اثناء بحث يعوزه التحدي .

كان هذا رأيه ، وهو ملتزم به الآن ايضا ، ولكن ما العمل اذا كان مضطرا ، فى آخر العمر ، ان يسير خللا لمعتقداته ودعياته ويستمد مع ذلك قرحيل . ونقول « مضطرا » ليس لمجرد الكلام ، فهو مضطر بالفعل . ثم ان الشيطان الذى تخلص من غوايته فى حينه لم يندد منزلهم خالى الرفاض ، فقد اغوى اخاه الاصغر هوشكا وحمله على الالتحاق بمشروع البناء . وعندما كسب مالا كثيرا ادمن على الشراب فى آخر المطاف .

ليتنا نجد من يهدينا في الوقت المناسب الى الطريق القويم .

ظل ايفان بتروفيتش في قريته ، تمايش معها واطمأنت نفسه دون ان يتألم بحال فالظلمات اخذت تتجل شينا فشيئا بمر السنين . وصلتهم الكهرباء وازدادت البواخر البيضاء التي ترسى على ضفاف انهارا عند القرية ، وظهرت حل بعد ثمانية كيلومترات في اعالي النهر مؤسسة صناعة الاخشاب الفنية ، واطلت على يغوروفكا تنهوى شبابها . وهنا ايضا تحولت الحياة ، كما في كل مكان ، من عدد صحيح الى كسر ذي بسط ومقام ، وليس من السهل ادراك ماهية رقمه العلوي ورقمه السفلي ؟ وهنا كان ينبغي التحرك بمزجه من الهمة ، طالما حل زمان مثل هذا الزمان لكل الناس دون تفريق ... وعندما فوجئوا بنبا اغراق القرية ، وسان مومد الرحيل ، فارقه ايفان بتروفيتش ، والحق يقال ، يألم واكتئاب ، مثل اى انسان يمتلك ذاكرة وفلادا ، لكنه في الوقت ذاته شعر باوتياح خفى لانه لم يتخذ القرار بنفسه ، بل قرر آخرون بدلا عنه . وقفل منزله الخشبي الى المكان الجديد . كانت الامور هناك جيدة ، وهنا يتظر ان تكون افضل بمر السنين . فان يغوروفكا على ما يبدو لن تنهض ابدا بقواها الخائرة .

اما البلدة الجديدة التي انتقلت اليها ست قرى تسمية ، مثل يغوروفكا ، واستقرت فيها رأسا مؤسسة صناعة الاخشاب ، فقد اتخذت لنفسها اسم « سرستوفكا » او « بلدة الصنوبر » اشارة الى الغابات الشاسعة آنذاك ، وال مخامات الاخشاب الآن .

كان ينبغي خلع المزاييح والاتفال من قبل طالما لا مفر من خلعها . وعندما هرع ايفان بتروفيتش الى مستودع المواد الغذائية الابعد الى اليمين كانت النار على اشدها . دوى دهب شديد تحت السقف الهسهس غطى على كل الاصوات الثانوية الاخرى . سقطت من احد الطرفين جنب جدار الركن عدة عوارض من السقف ، فاندفع اللهب الى تلك الفجوة بنفث فيها لظى سمورا . لعقت ألسنة اللهب جدار الركن من الاعلى الى الاسفل ، حتى تعدر الوصول اليه ، وتصادم الدخان من سائر الجدران . ومن خلال الشقوق في السقف ، حيشما بقيت اجزاء منه ثابتة ، تسربت النار بألسنة عريضة ينبعث منها شرور وصرير . وارتفعت درجة الحرارة لحد لا يطاق ، وكان كل شئ على وشك الاشتعال دفعة واحدة . ومن خلال الدخان الاسود فاحت ورائح اللحم المشوى بالاضافة الى رائحة لاذعة تزكم الانوف ، ربما هي لطعام لا يحتاج الى تسخين بهذا القدر . لم يسبق لايوان بتروفيتش ان دخل هذا المستودع ، ولما رأى وفرة ما فيه دعش بالبقية الباقية من مشاعره الصالحة للدهشة . على الارضية كومة كبيرة من الشوشيرك ، وجنبها ، على الارضية الوسخة ايضا ، كميات من السجق المتفتح المشوه السليك مشدودة بجبال خشنة وقد داستها اقدام الذين اقتحموا المستودع . وحل قاعدة غير مرتفعة عند الجدار الخلفي اخذت مكعبات الزبدة الثقيلة تنزوب متجمدة مغطاة ورق التغليف . وهناك في صناديق مكسدة الواحد

لكنهم كانوا يرتطمون ببعضهم البعض احيانا ويشيحرون
 بوجودهم عن حرارة النار التي لا تطلق. زحف الهميب على
 السقف والجدران الى اليسار بخفة ورشاقة ، ودمعت العيون
 وتحدثت الحناجر حتى لكان الدخان نفسه يحترق فيتنفسه
 الناس. وشوش شيء ما بشدة كما في القلعة. وانفجر
 شيء ما كالقذيفة. وتدل من الاعلى طرف عارضة أخرى
 احترق وتأرجح قليلا وهو يلوح بلسان من الهميب حتى
 هوى على الارض. حان موعد الانسحاب. فقد اخرجوا
 السحق كله في اغلب الفلز، وسحبوا صناديق السلك ،
 لكن ايفان بتروفيتش التقى نظرة على قاعدة الصناديق التي
 قرب الجدار الخلفى فرأى الزبدة فيها ، وهرع الى هنا
 متأسفا لانه افقد السحق وليس الزبدة. انتشل احد مكبات
 الزبدة الساخنة التي انخفضت وزحفت تحرق اليدين كالعجين
 وسالت على بطنه واندلقت بين ساقيه. وضع المكعب على
 الارضية ، ثم تلقفه من جديد والتي به على صدره وهو يتلوى ،
 وحمله الى الخارج وسلمه الى شخص آخر. كانت يدا هذا
 الاخير في قفاز كتافى ، فأسف ايفان بتروفيتش لانه لم
 يأخذ قفازه من البيت ، فما احوجه اليه الآن. وتقمع من
 جديد الى اعماق المستودع متلفعا بنفس السترة القطنية
 المضربة ، وهو يبدو من داخلها كما لو كان مدعوا
 بترس ، ونضى ثانية الى جدار الزبدة الابدع ، لكن احدا
 اوقفه به فى منتصف الطريق وسحب الى الوراء ليحتسب به
 ار يحيه. ولم يبد ايفان بتروفيتش مقاومة ، فهو يفهم
 طبعاً: لا داعى للمزيد. كفاية.
 وعندما خرجوا الى الهواء الطلق اتضح ان الذى سحبه

فوق الآخر اسماءك من النوع الثمين ، بالاضافة الى براميل
 خشبية وعلب من المقوى واكياس ورقية فيها ما فيها. يعنى :
 كل شيء متوفر على اية حال. فمن يستفيد من ذلك ؟ من
 يستهلكه ؟ هل يعقل انه يرسل فقط الى مطابخ فرق قطع
 الاشجار ؟ الا يكذب العاملون هناك عندما يقولون انهم لم
 يأكلوا فى مطابخها مثل هذا الطعام الذى لا يرى الا فى
 المنام ؟ ابتسم ايفان بتروفيتش ساخرا ، او حمل نفسه
 على الابتسام بلمحة ساخنة تسوغ له ان يتسم فى هذه
 المحفلة بالذات : وسيارات مركز الناحية لتي تخرج كل
 يوم من هنا وهناك على شبة التموين وتخرج من مكتب
 كاتشايف بما قسم الله ؟ وهل يتعبون انفسهم جزافا عندما
 يريدون تشييد مستودعات مركزية مشتركة لجميع مؤسسات
 صناعة الاخشاب الثلاث ، على ان تكون فى مركز الناحية
 بالطبع ؟ اوما ايفان بتروفيتش برأه او فكر بلزوم مثل
 هذه الائمة : عندما تحترق الآن هذه المستودعات التى هى
 اكبر المستودعات فى اكبر مؤسسة لصناعة الاخشاب يسهل
 عليهم بلوغ مآربهم .

ما اكثر الاشياء والحاجيات فى الدنيا ! فكيف حصل
 وصرفنا عبيدا لها ؟ كيف ؟

تلمع ايفان بتروفيتش بالسترة المضربة وواح يقفز
 تخلصا من الحرارة ويلقى الى باب المستودع قطع السحق
 اللزجة البلاء التى بدأت تتحشف. رلى الباحة كان احدهم
 يتلفع تلك القلعة ويضعها فى مكان ما ، ولا يرى ايفان
 بتروفيتش منه سوى ساقيه تتراكمسان جيئة وذهابا فى جزمة
 لماعة. كان جنبه اناس آخرون لم يتعبه الى وجودهم ،

هو ساشكا التاسع. كثر ساشكا عن أليابه وقال بغضب
نفس عبارته السابقة :
- سحترق ايها السيد المحاسي ، والله سحترق !
وابعد ايغان بترويتش بدنة .

٨

يبدو ان احدا لم يمد يواصل اطفاء الحريق . فقد
تراجع الجميع وانهمكوا في انقاذ ما يمكن انقاذه . وقف
صهريج الماء عند البوابة وسحرك سياوته يشتدل وخرطومه
يتدل والماء يقلر منه . كانت الباحة كلها في ضوء ساطع ،
فراى ايغان بترويتش البركة التي خلفها خرطوم الصهريج .
هرع اليها واحس بأنه لن يتحمل بدون ماء بعد الآن . رش
الماء على وجهه فتألم اكثر ، واغترق براحتيه وشرب بضع
جبرعات ، جبرعتين او ثلاثا ، وانقطع الماء . بقيت احشاء
الخرطوم وشخرت ولاذت بالصمت . هز ايغان بترويتش
الخرطوم ونثره ووضع واحدة تحت فوخته ، ولكن دون جدوى .
لم يمد بالامكان انقاذ مستودعات السلع الصناعية .
فاللهيب هناك طوق متصنفها بالكامل وواصل زحفه بززير
متخم هدار . قتلت اردواز السلوح من شدة الحرارة وراح
فتاته يطلقن كما يطلقن الجوز ويتقافز على مقلاة حامية .
وتطابير الجسر المستمر وتناثر فصار الاقتراب من النار امرا
خطرا ، واخذ احد الرجال يصيح بالصبيان وينهرهم وهم
يتلمصون من تلويحات يديه ويمدون اذراجهم بيمين جاحظة
كالمجانين وكان النار منطاليس يجتذبهم . جال ايغان

بترويتش ببصره بين الاشخاص الذين يتراكمون في الباحة
وهم يواصلون اخلاء بعض الحاجيات . كان يبحث عن
أليونا ، لكنه لم يجدها هناك . وكانت كومة السلع والحاجيات
التي امكن انقاذها في ازدياد . بلغوا مستودع الادوات
المنزلية ، فزنت وطلعت المحشات والقذور والآنية .
وحدث صفائح الحديد . يا الهي ، هل من موجب لاختلاؤها ؟
أم ان الحق مع الذين يقولون باستحالة العيش بدون ابريق
الشاي والمقلاة واسكان الاستغناء عن التلاجة والتلفزيون ؟
منطلق السياج القائم بين المستودعات وبين الحانوت
وتسابل وهوى قسم منه الى الداخل فكشف عن الشارع ومن
جرار فقل الجنوع الذي تراجع واستدار لينظره من جديده .
وقال ايغان بترويتش في نفسه : هذا تصرف صائب .
فالمستودعات يستحيل انقاذها ، لكن المخزن يمكن انقاذه ،
لان المسافة طويلة بينه وبين المستودعات . وكان كبير
الهندسين كوزيلتسوف يحوم حول الجرار ، معنى انه
هو صاحب القرار بتهديم السياج الذي كان يمكن ان يغدو
قويا لوصول اللهيب .

اجل ، حلت نهاية مستودعات السلع الصناعية ، وحلت
نهاية البلوزات اليابانية والمقال المحلية ، فهل يبقى منها
هناك ، في أتون اللهيب ، قدر ما امكن اخراجه ؟ ! لكن
مستودعات المواد الغذائية التي تخلفت عن المستودعات اليمنى
يمكن انقاذها الآن ايضا او توفرت سيارة اطفاء ولو كان
هناك تنظيم اكثر . بيد ان سيارة الاطفاء الوحيدة في
مؤسسة صناعة الاشخاب قد فككت وسرقت اجزاؤها

واستخدمت كقطع غيار ، وهي محسوبة على المؤسسة في الوثائق الرسمية فقط...

كان ايفان بتروفيتش لا يزال يجول ببصره على استعمال ويريد ان يجد أليونا قبل ان يقتحم النار من جديد. وفي تلك الاثناء لمس كتفه العم ميشا خامبو .

- خامبو ، خامبو... - فطلق العم ميشا بالكاد وهو يشير بيده اليسرى السليمة الى داخل الباحة . فهناك ، في الركن الايسر الذي تنيره هالة الحريق من جنبه ومن الخلف ، انصب شخص متمایل بدا كالشيخ الهائل وهو يقذف القناني من فوق السياج كما تقذف القنابل البدوية . اسرع ايفان بتروفيتش صوبه ، وقبل ذلك مرع اليه من مكان ما الى اليمين بوريس تيموفيتش وانهاه عليه بالصياح ودفنه حتى كاد يلقيه ارضا ، وهم ان يسدد له ضربة اخرى ... لكن الرجل لوح يقينية ، ولمله اراد ان يضرب بوريس تيموفيتش ، فكل شيء ممكن في مثل هذه المحطات ، لولا ايفان بتروفيتش الذي تمكن ان يتلقف القينة . كان الرجل من العرايب ، من اكثرهم امانا على الشراب ، وهو لسبب ما يحمل اسما اثريا : « صوليا » . سبق لايوان بتروفيتش ان تشاجر معه . انزع صوليا القينة من يد ايفان بتروفيتش والقي بها جانبا وهدد متعلفا بالهجة المتبعة بين العرايب وهو يشير الى النار من فوق الرؤوس :

- ما اشد الهميب ، ما اشد سخوته !

وشغلا متمائلا صوب الحريق .

- اين كنت ؟ - لم يجد المدير شيئا يقوله افضل من

التهجم على ايفان بتروفيتش - اين كنتم جميعا ، يا ابناء الكلب ؟ عيونكم في هاماتكم .

- ذهبت الى العمام - ود عليه ايفان بتروفيتش بنفس الحدة - وانصحك ان تذهب انت ايضا وتقتل كيلا تنهجم على الآخرين ... انظر ، على الاقل ، على من تنهجم ؟ اطل القمر هائلا ضخما على التلة . يزغ من وراء الغابة وزحف صوب اليمين وكما فرى على الناشئة سبحت فيه قنن الاشجار واحترقت في لهيب باود .

ربما تجد الآن اصول وبواعث الانمطان نحو البجوبة والعميشة المشتتة في البلدة . فلم يحدث شيء من هذا القبيل في بادئ الامر ، وحتى بعد الانتقال الى البلدة الجديدة لم يتفرق الناس ولم يحتزلوا بعضهم البعض ولم يشيحوا بوجوههم عن الحياة المشتركة المنظمة المرتكزة الى عادات وقوانين ليست من ابتداعات اليوم او الامس . لم تكن تلك القوانين وانماض والاجماع هي البلاذ وسفينة النجاة في القرية القديمة ابان الحرب وفي السنوات العصيبة التي اعقبتها ، حيث كان العقاب على سرقة عشر سنابل هو الحكم بالسجن عشر سنوات دون زيادة او نقصان ، وكانت القناريات تقصم للظهور وهاتين منازل « الكسالى » تنزع منهم لتنو فيها حشائش القراص الطفيلية ولا يسمح بحش الاعشاب حلقا للبقرة المبلغة حتى تلوج الشتاء ، ولا يد لتعاوض ان يقترون بالتعايل من اجل البقاء ؟ في حين يوجد في القرية اناس غير

مادوني الجانب ، يدفهم التزلف للسلطات الى الوشاية بغيرهم
دفاعا عن الشرعية والنظام . لكن كلا منهم يعلم علم اليقين
انه لا مقام له في القرية بعد تلك الوشايات . يفوروفكا لن
تغفر له ذلك .

اما الآن فقد اضطر ايفان بتروفيتش الى الانتقال .
كيف تبدلت الامور الى هذا الحد ؟ يمكن القول انها انقلبت
راسا على عقب . وما كان قبل قليل فانونا مشتركا خبر مدون
وقاعدة دنيوية راسخة لتعاضدهم والتفافهم تحول الى تركة
من مختلفات الماضي ، الى شئ غير طيبى يكاد يقرب
من الخيانة . اما سوسنوفكا فالامر بالنسبة لها سوا ، وربما
الافضل لها ان يرتحل ايفان بتروفيتش ولا يهكر الصنور .
او بالمكس ، اجل بالمكس ، فهو ، بوصفه شيئا مخرفا
يتذكر الماء الصافي منذ الطفولة ، لن يطلب بيديه حتى
يبقى الماء صافيا الآن ايضا حيث تعكر كل شئ حواله .
وطالما تطرق الحديث الى الماء فهو ، كما تعلم ، صاف
ليس عندما يكون صافيا بالفعل ، بل عندما يريرون ان يروه
صافيا . ولا يحتاج ذلك الى اكثر من نظارات ذكية توضع
على العينين .

كلا ، لم تندور الامور راسا ، حالما انتقلوا الى
سوسنوفكا . كان للعمل الجديد تأثيره السلبي بالطبع . فقد
انقصر على قطع الاشجار دون اى اهتمام بما يبقى وهل
سينو شئ بدلهام لا . الآن فقط اخذوا يلزمون العاملين
بغرس اشجار فنية بدل الاشجار المقتطعة . وحتى هذا
الالزام لا يختلف عن كون الانسان ملزما بالتفكير في
الموت بين حين وآخر ليعيش بشكل اقنى ، لكنه يمكن الا

يفكر فيه ، فهو يمشى وكفى ، وسياقه تتلخص في قطع
الاشجار . اذا لم ينفذ خطة التشجير يوبخونه ، اما اذا لم
ينفذ خطة قطع الاشجار فيقطعون وقته . ولذا جرت العادة ،
ولم تتغير بمر السنين ، على ان نمارس مؤسسة صناعة
الاختنا ب لعبة التويض عن غسانر الغابات ، لكن العين
بعيرة واليد قصيرة ، فال مؤسسة عاجزة عن تنفيذ اية مهمة
من مهامها الكثيرة .

بادئ ذي بدء انشأت كل قرية شارعا لها في سوسنوفكا
وعزبت على الميش بنفس العرائل التي كانت فيها سابقا .
وكالمادة قدم كل افراد التعاونية المساعدة والمون للارامل
والعجزة وانتحوا لجندهم في فقل الساكن رقلاحة البساتين .
وارتست في تلك البساتين دروب وسماش تربط بينها راسا ،
دون حاجة للخروج الى الشارع ، كى يتزاور الناس بمناسبة
وبغير مناسبة ، عندما يتفرغون لتجاذب اطراف الحديث
واحتماء الشاى . وما ان تميل الشمس الى المغيب حتى
تتملى الاصوات فى كل مكان : « داريا ، يا داويا ثمال ،
غل السماور » . « يا فاتاليا ، الا تذهبين معى الى
كريفولوتسكايا ؟ » ، اى الى الشارع الذى تقيم فيه قرية
كريفولوتسكايا قرب التلة .

وفيما بعد اختلط الحابل بالنابل . لا ضمير طيبا في
تداخل القرى بعد الوفيات والزيجات والاقسام والبيع والشراء .
فالحياة محتيلة بدون هذه المداخلات . لكن الطائفة الكبرى
ان الذين انتقلوا او نقلوا نسحو المجال لاناس ملائشين لا
يشكلون استشارة بل ولا جينة ، ولا يرفون غير طريق
واحد هو طريق الحانوت ، ولا هم لهم سوى الاكل وقضاء

الوقت بعد العمل . في البداية بعد العمل ، ثم اثناء ، حيث صار الحانوت ينطلى عليه ويحبيه . وكلما مر الزمن تضافوا في غيهم وحلا لهم هذا السلوك . لكن العمل ، وهذا شيء مفهوم ، لا يحب ذلك . فندهورت الامور ، امور العمل ، ونظهرت جماعات من نمط جديد لم تكن تعرفها هذه الانحاء . فظهر السكارى طبعاً ، وهى يخلو منهم مكان فى رطنتنا روسيا ؟ كلا ، بالطبع . اما ان يشكل السكارى طائفة تتحول علناً ، دون خوف او وجل ، الى عصابة وقمة لها زعيم وجلس يدير السلطة فيها ، فذلك ما لم يشهده البلد من قبل . وهو بالتأكيد من انجازاتنا المحلية .

قبل ايام اراد مدير المدرسة يورى اندريفيتش ، وهو يمارس التعليم من عهد يغورونكا ، ان يحسب عدد الذين قتلوا اiban الحرب من ابناء القرى الست التى اندمجت فى مونسوفكا وعدد الذين لقوا حتفهم ببيئة غير طبيعية خلال السنوات الاربع الاخيرة . ويقصد بالبيئة غير الطبيعية اطلاق النار بحالة سكر ، والظلم بالسكاكين ، والنزق ، والتجند ، والدھس اثناء قطع الاخشاب بسبب الاهمال من جانب الشخص او غيره . واتضح له ان الفارق بين مؤلاء وارللك غير كبير . صدق ايفان بتروفيتش عندما سمع بالنتيجة : كل هذا فى زمن السلم ؟ ! كان يعرف تلك الحوادث ويتذكر معاناته بسببها . فعندما يفارق الحياة شخص يعرفه يتغير شيء ما دوماً وكأن الدنيا تكفهر ، وتفسف النفس برحيله وان كان من اسوأ الناس . ايفان بتروفيتش يعرف كل حادثة وفاة ويثألم لها ، ولكن جمعها معا فى

رقم واحد ، جنباً الى جنب ، وقع عليه وقع الصاعقة . ظل عدة ايام حائراً قائماً يحاول ان يفهم ويستتج شيئاً من هذا التعادل الفظيع ، لكنه لم يفهم سوى استحالة فهم ما يحاول ان يفهم ويستتجه . رشة نفطة اخرى . فالقتيل اثناء الحرب يدعهم الى المدالة والخير بعد ان تركهما مع الروح واللاكریات التى تيش بين اهله واحبائه ، تركهما من اجل التحرك والتنفيذ . وبقيتنا ، نحن ، دون ان نعلم ، حوالى عشرين عاماً بعد الحرب نتمسك على تركة القتل هذه ، على وصيتهم المشتركة التى ما كان بوسنا الا ننفذها بحكم قوتها وسموها وبحكم طبيعتنا الانسانية . اما الذين قتلوا بحياتهم عيشاً ولانغذ الاسباب ، لحماقتهم وبأسهم الاعى ، فلا يخلفون سوى الحماقة واليأس والفساد . الموت معلم سليط ، والجانب الذى يلتزمه اثناء اداء واجبه ، غيرا كان ام شراً ، يتضاعف ويزداد مرات .

فى السنوات الاولى كانت مؤسسة الاخشاب كلها عبارة عن قطاع واحد . وفيما بعد افتتحوا قطاعاً ثانياً ثالثاً فرباعاً . وكل امتداد الضفة وحدها انبسطت الاراضى الخالية بعد ان قطعت اشجارها لاكثر من مائة كيلومتر . والقطاع الواحد الآن يعد اخشاب تزيد على مائة الف متر مكعب فى العام . اوتفقت مؤشرات الخلطة ، واخذت تتوارد آليات اكثر قدرة وبهارة ودهاء ، ولم يعد عدد العاملين كافياً ، فتقاطر العمال الموصيون والكسبة ، بعضهم للزيد من الكسب ، وبعضهم لتلئ الوقت بأى شكل وفى اى مكان . ونشأ فى السنوات الاخيرة صنف خاص من الناس . ليس من العائلات تماماً وليس من المضيئين كلياً ، ممن يتنقلون طول الوقت لا غبة

في المال ، وما يحصلون عليه من مال ينفقونه في الحال ، بل تحذروهم الالابالية ورفض العمل ايا كان ، كالمعتزلة المتبدين . وهم لا يمتدحون يد المعونة لاحد ولا يتقبلونها من احد . ويؤدون اجراءات الحياة مبتورة مختزلة ، فليس عندهم عوائل ولا اصدقاء ولا هوايات ولا هوس ، وكأنما يقضون مدة الحياة كمدة السجن . كان الواحد منهم يوصف في السابق وكأنما تلقى صدمة مفاجئة من وراء الزكن ، اما الآن فيمكن ان نقول عنه بأنه تقرع واقسم على العزلة والافتراد . ولا يعلم الا الله بما يشئ في هذه النفوس والارواح .

في الربيع عندما يتبين ارسال جلوع الاشجار بعد انزالها من التلال خلال الشتاء ، وفي الخريف عندما يتبين قطع الاشجار وانزالها من جديد ، يتقاطر هؤلاء ثم ينحسرون ، كالمذبح والجزر ، فلا يبقون في مكانهم ليس لانعدام اسباب الراحة ، فاندماها لا يتجاوز حدود التحمل البشري ، بل لمجرد كونهم لا يجيدون البقاء هنا ولا يفهمون الفرض منه ، فهم مدفوعون بقلق غامض لا يطاق . وعندما يشدون الرحال تكتسب النفوس والعيون : قال اين ؟ ولماذا ؟ لكنهم يرتحلون ولا يتذكروهم الباقون هنا الا لغرابية احوالهم وتصرفاتهم الخارقة للعادة والتي يجيدونها كل الاجادة ، مثل ذلك الذي رفع مائدة الطعام بأستانه ، او ذلك الذي ثرد الخبز في التودكا ثم اكل الشريد بالملقة دون ان يتقزز ، او ذلك الذي اثار الذعر في نفوس مستخدمات البرق والبريد بارسال برقيات تشبه الشفرة : « العطر يتساقط اليوم الثالث ما يصل ؟ » ، « ديسمبر بعد نوفمبر فلا تخلط بينهما » ، « لا تتظلمي وسأعود » . لم تشهد يغوروفكا القديمة طوا

ثلاثمائة عام من وجودها قبل الطوفان جزأ من الف جزء . مما شهدته سوسنوفكا من عجائب وغرائب في عشرين عاما . وليس هناك ما يشير الى نهاية قريبة .

هذا ، بالطبع ، غيخ من فيض . وهو اهون ما يمكن ان نتذكره من تلك العجائب وابدها عن سوء القصد . ووبسنا ان نصيف اليه ما حدث لحارس الغابة اندري سولودوف . قبناه على التحويل الذي يتمتع به فرض قبل عابن غرامة على مؤسسة الاخشاب لانها تركت قرما عالية تكاد تبلغ الخصر . عندما تساقطت ثلوج وفيرة اخلوا باصول قطع الاشجار لتسهيل الامور وتفاذي التطهير . وبعد محاولات متكررة من الاقتناع والتهديد فقد صبر اندري رغم التسامح الذي يتحل به عموما : خذوا جزءا من طامالا لا تفهمون لغة البشر . في يوم الجمعة ارتحلت امينة الصندوق لتجلب الاجور فعاتت خالية الوفاض ، لان البنك احتجز اموال المؤسسة وسدد بها الغرامة . وفي السبت سخن اندري الحمام ، كالعادة ، واغسل وآوى الى الفراش ، وفي الليل احترق الحمام ، بسبب اهمال صاحبه وقلة حذره ، كما يبدو : الم يسخن الحمام ويشتل ويغط في نوم عميق ؟ ! وفي يوم الاثنين توجهت امينة الصندوق الى البنك مجددا ، وحادت ثانية بحقيقية خالية . وقالوا لها ان تفتظر حتى الاربعاء ، لتتجمع النقود ، نحن اين لهم بفانض منها ؟ وفي الاربعاء قالوا لها ان تفتظر حتى الجمعة . يوم الاربعاء ضاعت فرس اندري سولودوف المائدة الى مؤسسة الغابات ، وفي الفرس الكادسة الوحيدة في البلدة كلها . كانوا يحرقون بمعزتها نصف بساتين المنازل ، ولا يستثنى عنها في شلون

الغابات . وعندما حل الربيع ذابت الثلوج وكشفت عن عظام
الفرس في الجب ، وجنبها جبل تهرأ وبلى .
تكلم ايفان بتروفيش مع اندري واستقر رأيهما حل ان
ذلك من فعل اهل البلدة . فذن السخف اتهم النازحين وحدهم .
كلا ، حتى الاهال الذين عصاوا وعاشوا معه جنباً الى جنب
تعلما النظر شزوا الى كل من يطالب بالحقوق وينشد الفصحير
كما هي العادة في سالف الزمان . وقد حدد الاهال ايضا
ايفان بتروفيش عندما لم يطق السكوت ، لعله بأنه سيؤذي
نفسه فيما يعد اشد الاذى بسبب هذا السكوت ، فنهض
وتكلم في الاجتماع عن كل ما جرى في اماكن قطع الاشجار
وفي السودج السفل وفي الكراج والحوانيت . طرح كل ما
عنده ، كل ما يعرفه وغدا بالتدريج امرا معتادا : الاليات
تستعمل في الغابات دون رحمة وبلا موجب ، وتستخدم في
حالة سكر او صحو مسافة عشرات الكيلومترات للاغراض
الشخصية ، وتسرق ورشة التجارة في وضع النهار ، وبمضا
سحرية تختفي البضائع المذكورة في الفوائد ، وهي في طريقها
الى مؤسسة الاخشاب ، وتظهر بدلها في الحال اموال تستخدم
لدواصلة التجارة ، وتخرق نواعد السلامة والامن الصناعي
بارغام سائقى الجرارات على سحب جلوع الاشجار على جليله
لم يتجمد بالكامل ... بلغ الامر بمدير القتلح بوويس
تيموفيتش حدا جعله يجلب في حقيقته القماشية خفية قنيتين
من القودكا الى الماملين في قطع الاشجار كيلا يتوقفوا عن
العمل . وصار هؤلاء يمتبرون ذلك من طيعة الاشياء ، مثل
علب الشاي الثلاث التى توزعها اللجنة النقابية مجانا .
- واصل ايفان بتروفيش تأملاته وهو فى اشد حالات

الافئمال : الدنيا لا تنقلب رأسا بقرية عصا ، بل تتحول
كما يحدث بالتدريج عندما . ما لم يكن جائزا او مقبولا
صار جائزا ومقبولا ، وما كان محظورا رفع عنه الحظر ،
وما يعتبر عارا وشائرا وخطيئة لا تنتفىر غدا دليلا على الشطارة
وتجساره . الى متى سنظل نسلم مواقعنا وقد التزمناها من الازل ؟
من اين ستأتينا الامدادات المشوذة ؟ من اية مؤخرة واية
احتماليات ؟

- هل انت اعمى ؟ - زعق بوويس تيموفيتش ، لكن
صوته لا يتلوى على ضغط او تشديد ، ولهجة سؤال لا تحتاج
الى جواب - لماذا تعيد وتكرر ؟ الا ترى اننا لن نميش
بدون الخطة ؟

وعندذاك انفجر فيه ايفان بتروفيش :

- الخطة ؟ تحدث عن الخطة ؟ الافضل لو شئنا
بدونها . الافضل لو وضعنا خطة اخرى لا بالمتر المكعب ،
بل بمدد النفوس ، حتى تؤخذ بالاعتبار الاوضاع التى
قبضها عزرائيل ، ويحسب ما بقى منها . تحدث عن
الخطة ؟ تذكر ما كان عندنا قبل خمس سنوات على الاقل ...
- ماذا كان قبل خمس سنوات ؟ - تظاهر بوويس
تيموفيتش بأنه لا يفهم - لم يكن عندنا لا قلابات ولا رافعات
مستة ، ولا شاحنتك التى تنفل بها ثلاثين مترا مكعبا كل
مرة .

- نفس السجيج ونفس الكلام . آنذاك لم تحمل القودكا
الى اثلة وتشتريها بقودك من اجل تنفيذ الخطة . هذا لو
تذكرت ان تنفيذ خطتنا ليس مشكلة ، نهى لا تحتاج الى
هذمة زراعية .

- ليس مشكلة؟ - بوريس تيموفيتش يعرف ما هي الخطة اكثر من غيره. فقد عانى الامرين من اجله وكرس حياته كلها لها. عندما يتسنى له ان ينال مستفيق بين لحظة واخرى بسبب خوفه على الخطة، كخوفه من الطاعون، وهو يمشى خصوصاً الايام الاخيرة من الشهر عندما ينفج تنفيذ الخطة يتوفر تكنولوجيا معقدة لا تحلم زواعة القمح بمثلها. انه يعرف اكثر من غيره ان الخطة ليست مجرد مشكلة، بل هي مشكلة تتطلب جهداً ودماءً وفؤاداً ما تتطلبه اية مشكلة سواه. وليس بوسع ان يوضح كل هذه الامور، ولذا قال بزعزل خفى: - ليتك تحل محل.

- لا اريد. عندي مشاكل في محل ايضا. وكان لدى افونيا برونيكوف، وهو سائق جرار من ابناء يقرودنكا، رأى آخر. فقد قال لايفان بتروفيتش يعاتبه بابتسامة انطبعت على وجهه المريض الخشن: - لماذا انت منفعل؟ هل تستطيع ان تقنع احداً؟ انا، مثلاً، اعمل بنزاهة واعيش بنزاهة، لا اسرق ولا اتحايل. وكفى. فمن يصير بر كيف اعيش وكيف يمشى الآخرون. كل شخص يسير في الاتجاه الذى يميل اليه. والمطلوب منا ان نعيش باستقامة وتكون حياتنا قدوة، لا ان يتبادونا بالمصا الى القطيع. فلا جدوى من المصا. - فات الاوان، وتأخرت القدوة، والله، تأخرت! - كلا، ابداً.

لكن نوابض روح لايفان بتروفيتش مشدودة بشكل آخر. فقد انغل ضغط الحياة اليومية على نابض ما فى داخله وجمله ينضغط ويتوتر حتى عجز عن التحمل. نهض من

جديد، وكان قد عاهد نفسه مراراً على الصمت واثبت لنفسه ان الصمت ايضا طريقة ناجمة للتأثير والاقناع، نهض من جديد وطفق يتكلم بصوت مرتفع محتد. انفعل اشد الانفصال وغضب على نفسه، فهو يفهم: لا جدوى من الكلام. قبل ان يشكل الغرايد عصبتهم بزراعة ساشكا التاسع جاء ايفان بتروفيتش الى الكراج فى صباح احد الايام فوجد حبال القرملة فى العربة الملحقة بشاحته مقطوعة. خذ جزائك ايها الباحث عن الحقيقة، كالدمية. ذات مرة قالوا له ذلك صراحة: «انت دمية تكرر كلمتين: جيد، ردى». حيناً لو فكرت شخصياً».

يعنى ان الجيد ردى والردى جيد. يختار المرء، شاء ام ابى، بين هاتين الكلمتين.

١٠

اورشهم الكهيب على ترك مستودع الاغذية الاول، فانتقلوا الى المستودع الثانى. ومن حسن الحظ ان جزءاً من سطح هذا المستودع الاخير قد اقتلع فحال دون زحف النار. وكانت قد تسربت اليه من خلال الركن الايمن والركن العلوى الابدع ومن خلال الواح السقف. عندما دخله ايفان بتروفيتش فى المرة الاولى كان جمود ساخناً خائفاً، ومع ذلك يمكن تحمله بدون اهيب، وكان المبنى من الداخل لا يزال قائماً باربعة جدران سليمة. ومما يشير الدهشة كثرة الناس هنا وهم يتصايحون مرحين وينادون بعضهم بعضاً وسط قرعة متواصلة ورنين. لم يلاحظ ايفان بتروفيتش رأساً السلسلة

البغاوى المز الذى ينفر منه القرويون بمذاقه الاصل ،
لشدة حموضته وقلة تركيزه .

تصور ايفان بتروفيتش ان الزيت النباتى مبعأ فى
قنار ، فراح يبحث عنها ، لكنه وجده فى برميل معدنى
ضمن عتيق متسخ الجوانب . طرّح البرميل بشق الانفس ،
والحرارة تلسع يديه ، لكنه لم يتمكن من دحرجته . تملد
البرميل ولم يتزحزح . فاسرع ايفان بتروفيتش الى السلسلة
البشرية وانتزع منها اول حلقة تصادفه دون اختيار او
تمحيص . واتضح ان ذلك هو نفس الفتى الذى شارك معهم
فى اقتلاع الواح السطح رجاء بنأ الثور على دراجة
«اووال» . كانت تقفح منه رائحة الفودكا الساخنة .
قفز نى اثر ايفان بتروفيتش دون ان يفهم شيئا وكون ان
يبدى مقاومة . وتمكنا معا ، بالايدي قارة وبالأرجل تارة
اخرى ان يدحرجا البرميل .

- هناك برميل آخر ، يا ايفان بتروفيتش ، برميل
آخر - صاحبت مسؤلة المستودع غالبا واسرعت لتدلها على
مكانه - هناك ، هناك .

امسك ايفان بتروفيتش الفتاة ودفعها من الباب الى
الخارج ، فلا داعى لوجودها هنا ، لان مصلحتها المادية
يمكن ان تكون اقوى من العقل السليم . لا داعى لان ترى
ما يحدث فى الداخل . وفى لمح البصر ضيع ايفان بتروفيتش
صاحبه الفتى الذى دحرج معه البرميل . فقد عاد ذلك الى
السلسلة فى الحال وعندما بحث عنه ايفان بتروفيتش رأى
رجال السلسلة ينقلون ، بالاضافة الى المسانديق ، قناني
مفتوحة تلمع على ضوء القهيب كمصابيح يدوية .

البشرية المنظمة التى تحمل مسانديق بغساعة هى الاكثر
رواجا ، مسانديق الفودكا . وقف فى لسلسلة اشخاص من
الماملين فى المستودعات بالاضافة الى العرايب . توقف ايفان
بتروفيتش متحيرا ثم عاد ادواجه مسرعا ، وقد انقطع صندوقا
كيلا يخرج من هناك خالي الديدن . كان واثقا ان هذه
البغساعة لن تهلك حتى بدونه . فى المراء لفحت الهالة
الساخنة من فوق ، وتناهت اليه من مكان ما صيحات مسؤلة
المستودع غالبا وهى تطالب وتتوسل بان يتفقدوا الزيت النباتى .
كانت تصيح مؤكدة انهم لن يستلموا كميات جديدة
منه حتى الخريف ، فقد استلموا المقرر بالكامل . عاد
ايفان بتروفيتش بدافع من هذه الكلمات ، ولم يتذكر ،
لانشغال باله ، هل الوقت الان صيف ام شتاء .

كان قد خرج من المستودع لثانية واحدة لا اكثر ،
وفى تلك الاثناء اخترقت السنة النار الركن الايمن .

السنة النار تندفع بلهات هادر ، واصوات السلسلة
البشرية تتعالى متقطعة بمزيد من المرح والحبور ، والقناني
تتلعلم مجلجلة . بين خليط الاصوات هذا صوت رقيق
خافت يتكرر كصغير متناغم او خرير متواتر . هرع
ايفان بتروفيتش الى الجدار الساخن الذى ينتهى منه الخريف ،
فوجد مسانديق من فبيل مستورد ، وادرك حقيقة الامر .
فقد انفجرت مدادات القناني . لم يحاول ايفان بتروفيتش ،
قبل ان يصل الى مصدر الصوت ، ان يحزر حقيقته .
تصور انه ينبعث عن انفجار مدادات قناني القراوليا المركزة
او ما يماثلها . فمنذ فترة انتقلت القراوليا المركزة الى خانة
المواد الغذائية ، اذ صاروا يصبونها على البيلد المجرى او

نهيا ، صجلوا - قال احدهم وهو يلتقي بهستوق الى جاره ، فاستجابت السلسلة كلها : - عجلوا ، عجلوا ! - عجلوا - كرر آخر وهو يقذف بقنينة من فوق رأسه المائل الى الوراء .

الا ان الهميب كان هو الآخر في عجلة من امره . فندما اجتاحت داخل المبنى النهم نصف الجدار الخلفي وانتقل الى الصنف ، ومن هناك اخذت تتدل بنفس المجالة الستة الطويلة الثلاثة . تمسرت الانفاس . لم يعد الهراء نفس الهراء ، ولم يعد التنفس طبيعيا ، بل غدا مجرد محاولة سريعة مشوشة لالتهام الفراغ المحترق . رصاح صوت جهوري ملحاح ، لرجل وربما لامرأة ، ينادى قلنا :

- بطرس ، اين انت يا بطرس ؟

- هل هو بطيخ حتى نأكله بدل المزة ؟ - اجابه من السلسلة صوت آخر بدأ رفيقا محترقا نفذت منه ، عبر السخونة ، مجرد كلمات .

اسقط ايفان بتروفيتش برميل الزيت من جديد بعناية اكثر من المرة السابقة ، فقد بدا اخف من البرميل الاول ، وحاول ان يدرجه لوسده ثانية . فهب رجل لجذته . وعندما غرجا بالبرميل استقبلتهما منزلة المستودع بنواح ونحيب ، فالبرميل بلا عداد . تطلع ايفان بتروفيتش مصموتا الى اثر الزيت الذي يتلوى من المستودع ثم تطلع الى الفتاة التي تتحجب مولولة وكان لترين ار ثلاثة ألتار من الزيت المنسكب أفدح خسارة تتكبدها اليوم .

اسلك افونيا برونيكوف خصر ايفان بتروفيتش واقتاده بسرعة الى الركن الايسر من الباحة بعيدا عن الهميب ، وأوضح له قائلا :

- يجب ان نخل الطحين قبل فوات الاوان . هذا كله لا قيمة له - لوح بيده الى الخلف ، صوب المريق ، باستهانة بالغة - اما الطحين ... لا يجوز ان فبقى بدون طحين .

كان الصبية والنساء ينقلون من المستودع الثالث علب الحليب الجفث وصناديق من الكرتون فيها حلب صتيرة جدا كأنها للالعاب . وكذلك صناديق افيقة ملفوفة بأشرطة معدنية . ووراء المستودع الثالث ، اقرب الى السياج ، يخزن الدقيق في مبنى واطى بدون ملحقات .

باب المبنى المريض ، كبوابة سياج ، مفتوح على مصراعيه .

استطال ظل ايفان بتروفيتش وظل افونيا برونيكوف ، في انحناءات مشوشة ، الى ما لا نهاية وتجاوزا السياج وصعدا الى سماء البلدة .

- احترقنا ... - دوى صوت في احد الشوارع العليا . شنف ايفان بتروفيتش اذنيه مرتبعا واخذ ينصت الى الصوت .

- كان نائما - قال افونيا بغضب مرح - تحولنا الى رماذ ولم ينتبه . هيا ، يا اخي ، التحق بنا قبل ان يلموت الاوان . والا لن تصحو من سكرتك غدا .

الفوضى فيما حول الانسان تختلف تماما عن الفوضى في داخله . ففي الحالة الاولى يجد قدر ما يريد

من المذنبين ممن نسبوا في نشر الفوضى : وقد تكون بين
الاسباب قوى لا علاقة لها بالقضية اطلاقاً ، لكنها تلعب
دورا كما يقال . فلهذه الفوضى (او الفوضى) ، باحتصار ،
مسيون كثيرون يصعب ان يتفقوا على شيء احداً ، ويصادف
ان يطلقوا من هم متباين للعالم المنتظم ، فما يعتبره بعضهم
وضعا طبيعيا ، محفولا يعتبره الآخرون يلبلة واضطرابا .

وفي الحالة الثانية يعود الامر للانسان في كل ما يحصه
وحده ، فالقول الفصل له ، وما من احد غيره مسؤول عما
يجرى في دخيلته . حتى لو خيل اليه ان ما يجري فيه ينوقف
على اسباب وحوافز خارجية عديدة ، فان تلك الاسباب
والحوافز لا تستطيع ان تتجاوز سلطته العليا قل ان تجتز
حدوده الخفية لمحبة . وفي هذه الحالة ايضا تقع "مسؤولية
على الشخص رحدة .

ما اسهل ان ينسج الانسان في متاحات روحه . الشخص
الحماس يعرف ذلك . وهو ينظر الى نفسه ليس بمنظار
الطبيب الذي يرى ، اول ما يرى ، اعضاء تؤدى وظائف
معية ، بل يعتبر نفسه سيدا جبارا وضعيف الارادة في الوقت
ذاته لملكته متراصة هائلة خلفتها له الطبيعة بمعجزة ، وهي
تطلب سلطة معينة .

يخيل اليه انه يعرف موضع ضميره واداته وذاكرته
ويعرف منشأ الرغبات ومصدر الموانع والقيود . انه لا يعرف
مواقفها على وجه التحديد ، لكنه يتصور القنوات التي
يبحث بها الاشارات اللازمة لكي تستجيب لها . فالضمير
لا يستطيع من تلقاء ذاته ، بل بمشيئة من الشخص نفسه .
ولعله قادر على الاستيقاظ ثانيا ، انه قادر بالطبع ، لكن

الوقت لا يتكفيه ، قاله ، باعتقاده ، يوقفه بصورة اوسع .
ويتصور الانسان ان هذا من واجبه ضمن الحدود الموكلة
اليه : لا بد ان يتدخل قبل الاوان في الاحتجاج الذي
يكاد يتفجر او الاذعان الذي يكاد يخرزل . لا بد ان
ينهض ويبادر الى الكلام قبل ان يظلم . والآخرون .
هو والآخرون . هو السيد الذي يعمل في بده ، مثلما
في "ملكته" ، كل احد والقرى ، كُن الكائنات والروابط ،
كل العيوب والامجاد . وهم الذين يشكلون الحياة الخفية
للعالم . هو والآخرون كل متكامل ومجرب في الوقت ذاته .
كل متكامل عما يسود اسلام والنور ، ولا تبغى الحلاوت ،
التي لا تستعنى عنها اية حية ، الا لفترة يصدر فيها العقل
حكمه العائد . اجل ، سوء التدمع يجب الا يستق به ان
ينفهم العقل . وهذا الكن مجرا عند يسود خصام ولا
تعود ممتلكات الانسان وحاجياته تخضع له باذعان . عند
ذلك فقط يدرك الانسان ان ممتلكاته وحاجياته اقوى منه ،
لانها هي التي تشكل تصرفاته وافكاره وتوجه حركاته وتستخلص
الاصوات من حنجرتة . فالانسان فان في آخر الساعات ،
وهي باقية ، وقد كانت كاسه فيه نارادة قوة جبارة شامخة
عجز عن رسم صورة واضحة لها . فقد اتقوة ، لا الانسان ،
هي سيدة الموقف ، اما هو طيس سوى رسمه ونفى لتلك الحاجيات
وفشاء هش لمسئوليتها وللمصدر وفاقها مع العالم واندماجها
به . لم يبرر الانسان آمالها ولم ينفذ ما اوغزت به اليه ، فلم
يكن صادقا مع نفسه . ربما كان صادقا مع اى كان ما
عدا نفسه . لن يشبهه اناس ويودعونه ، سيودعون اسمه فقط
علما بعيدونه من حيث جباه .

الفوضى فيما حول الانسان تختلف تماما عن الفوضى في داخله . وجد ايفان بتروفيتش خرابا وهيبا في ثانيا ووجه ، وكان عصاكر اجنبية داستها وعاشت فيها فسادا ولم تترك من كل ما كان يعتبر حياة مستقرة ، على اية حال ، سوى دخان خائق وشقق محروقة وكسارة مستنة لا شكل لها . يصعب القول انه كان في السابق يعيش في وثام تام مع روجه . فنى كل انسان ، حتى وان لبي حاجاته بالكامل ، يتمرد شيء ما ويتنفذ متنفرا او مطالبا . واجه ايفان بتروفيتش تمردا من هذا النوع ، لكن مبعث هو الحاجة الى ترسيم حورى ان صح القول . وهو يعرف علاج هذه الازمة - علاجها العمل او الطيبات . لم يفعل الطيبات كوصفة لمرهم يخفف من آلام الجراح . كانت تأتي من تلقاء ذاتها ، فيخت الام بالتدريج ، حتى لكانه يظهر ، بين الفينة والفينة ، في هذا الموضع او ذاك لمجرد ان يبين ان الناس لم يفقدوا قدرتهم على الاحساس والمفاته .

فماذا حصل له الآن ؟ كيف حدث واعلنت طبيعت المبشئة بمتى النهاية تمردا للمعاشي* وسقدها عليه ؟ كل ما يقوم به لا يأتي كما يرام ، وكلما توجه الى جهة ترفقه قوة ما ونهس في اذنه بصوت فيه الكثير من التشغى : لم تجد افضل من هذا ؟ لقد عجز بالفعل عن ابتداع شيء افضل . خارت يداه ونخر الخواء بدنه .

لا يتذكر من ابن بدأ خلافه مع روجه . كانت له بداية بالطبع . فنى لحظة ما تمردت عليه روجه لأول مرة ولم تعد تنهم . تمردت عليه ولم يكن ذلك مجرد اختلاف في الرأي . رفضت الكيفية التي يعيش فيها ، مع انه يحاول

دوما ان يعيش بوازع من الضمير وينطلق في تصرفاته من العدالة والمنفعة والمصلحة العامة كما غيل اليه . انليس الروح والضمير شقيقتان من ام واحدة ؟ الا ينزى الضمير الروح ؟ وهل من خلاف بينهما ؟ عندما دعت الحاجة الى قول الحقيقة كان يقولها ، وعندما استدعت الظروف العمل كان يعمل . ديدنه الا يتنكر للحقيقة ولا يتنصل عن العمل . انليس من المهم لهما ان يبقى الانسان ضمن الحدود التي منحت له ؟ الحقيقة فخر مجراء مفروش بالصخور ، وصفاته واضحة العالم بخطين من الرمل والصخور ، ومياه صافية تدفع الى الامام . الحقيقة ليست سائلا حلايا نننا مترجرج المستوى متصيع الضفاف . انها تنبع من الطبيعة نفسها ، ولا يمكن تعديلها او تحويلها لا بالرأى العام ولا بمراسيم الحكام . فما الذي جعله ، وهو الانسان الذي يعيش وفق الحقيقة الخالصة ، يدخل في حرب ليس فقط ضد الذين لا يتقبلون الحقيقة او يتقبلون نصف الحقيقة ، بل وضد نفسه ووجه ؟ ما الذي يجعله راثقا ان الحياة مستحيلة اذا وافقنا حل نصف الحقيقة او تنكرنا لها بالكامل (التنكر للحقيقة بالكامل افضل ، على اية حال ، من القبول بنصف الحقيقة) لكنه في الوقت ذاته غير رائق من نفسه وهو يقف على الطرف الآخر مقابل الذين يجانبون الحقيقة دون ريب ؟ انهم غير محققين ، وهو يتسكك بالحقيقة كالفانون عندما يقول انهم غير محققين ، لكنه هو ايضا غير محقق . فما السبب ؟ فاما ان يكون الضمير والحقيقة مستقلين يتصلان ببعضهما البعض ويكمل احدهما الآخر ، واما انهما غير مستقلين وخاصمان لشيء اهم ؟ ما هو؟ أمر الروح ؟

فيحتل بينها مرتبة الاسياد. اعدوا له قاعدة على الجانب الايسر وفرشوها بالشمع. وحتى اكياسه نظيفة متينة ومرصوفة بمناية، وكان الذين حملوها ووصلوها ليسوا من ابناء هذه الانحاء بل هم فريق اجنبي استدعى خصيصا. وكما هي عادة ايفان يتروفيش في البدء بأقتل الاحمال، قاده قدامه الى اكياس السكر. لكن افونيا برونيكوف اوقفه:

- فلنبدا بالطحين، فهو الكل في الكل... - ولوح بيده من جديد مثلما فعل في المستودع السابق.

الجور هنا ليس ساخنا، من حسن الحظ، ولكن يجب الاستجمال، فلم يبق امام الحريق سوى مبنى واحد لم يلتهيه من اكياس الدقيق المكسدة كيفما اتفق، يتجاوز ارتفاعها القامة البشرية بكثير. وفيها حمل، لشخصين، يمكن حتى وصول الحريق. تماك ايفان يتروفيش نفسه ولم يرتب من حول العمل، فالوقت غير مناسب للحساب وتبيد الطاقات. حمل اول كيس وقع عليه بصره، وكان معزولا الى جانب، ولم يفكر لماذا تركوه هناك، تثار الطحين عليه من الرأس حتى القدمين. الكيس مفتوح من جنبه، من مومع النياطة، وعندما حمل ايفان يتروفيش من الجنب المفتوح انفجر وتثار الطحين على قفاه وسد فمه. لم يتحمل افونيا فانطلق في قهقهة مدوية:

- اذهب يا ايفان يتروفيش الى النهر اولاً، ثم الى القنار، وستكون الكمكة جاذمة.

وهل الروح التواقة الى التهادن مستعدة لارضاء الحق وغير الحق؟ اذا كانت مستعدة لارضاء غير الحق ايضا، اذا كانت تبحث عن الحقيقة والضمير حيشا لا وجود لهما، فهذا يعني ان الحقيقة ليست حقيقة، والضمير ليس ضميرا، بل مجرد روح متألمة تواقة. فماذا تفعل يا ترى اذا كانت الحقيقة والضمير متعثرين بسببها؟ من يبينها ويدعها؟ طيب، يمكن الافتراض بأن الروح لا تحب الاستقامة الاعتيادية ولا تطبيق الاحكام المباشرة، بل تفضل البحث عن الجواهر تحت الركام، ولكن من سيبقى الى جانبها وهي مشغولة ملول الوقت في البحث تحت الركام؟ ثم ما المقصود «بجانبها» او جانب غيرها؟ من الذي رسم الحدود بين الجانبين؟ وما الذي يدفع الانسان لتجاوز تلك الحدود؟ اليس تلك قسمته ونصيبه؟ الا يدفعه القدر الى ترك «جانبه» والانتقال الى «جانب» الغير؟

حاول ايفان يتروفيش ان يشق منفذا بين هذه الاسئلة التي لا نهاية لها ولا حد، وهي تتصلص من الجواب وتزلق عليه كما على جدار أملس، الى ان وصل الى طريق مسدود، الى مضيق مغلق لا حياة فيه. فتراجع منسحبا دون ان يلهم الجواب.

مستودع الدقيق الاخير لا يحتوي على الطحين فقط، ففيه حبوب وسكر. اكياس الحبوب مكسدة على الارضية كيفما اتفق، وعليها طبقة من التباو الرمادي، اما السكر

غيل اليه لسبب ما ان المسافة بينهما الآن هائلة . فهو قريبة منه لكنها بعيدة . لان هذه المسافة تقاس بخطى اخرى ، مجهولة ، لم يجربها بعد .

قبل ان يواصل ايفان بتروفيش جهوده التي نظره حل المستودع الذي اقتاده منه افونيا . لم ير احدا يقفون في بابها او ينظر منه . كانت آخر اللتان والحاجيات تقذف من خلال غشاوة قارية مخمرة داهية ، فما اعظم نهوض ذلك الرجل الذي اسكرو جنون البسالة فظل هناك ، وراء حجب النار ، والله رسده يعلم بم يحتوى منها . اما هنا ، امام الباب فقد كان فتى نى قيمة يبيضه من نور الاوانب يقفز وينط بحركات بهلوانية يعجز عن القيام بمثلها حتى فتانوس السيركس وهو يتلقف ما يقذفه ذلك الرجل من وراء حجب النار . كان يتلقف الحاجيات ويلقى بها الى الخلف دون ان يتلقف . وهل مقربة منه وقف بوريس تيمونيش يتطلع اليه في النور الساطع الذي يغمر المكان . اندلع الهميب عاليا فوق منتصف مستودعات السلع الصناعية فأثار الباحة كلها بضوء شديد ، وبدا كل شيء فيها ساكنا معجبا بهمة الفتى ذى القبة القزائية البيضاء . وقف بوريس تيمونيش هو الآخر ساكنا معجبا به . وعندما خفت الهميب ، انطلق من مكانه ، وأندفع الجميع من جديد ايضا .

حينما افارت السنة الهميب الباحة كلها لح ايفان بتروفيش عند السياج المدق الذي استخدمه افونيا في قلع الواح السطح ، ولعله تركه جنب وتد السياج خصيصا ليستفيد منه الآخرون عند الاقتضاء . اختطفه ايفان بتروفيش واكفها وانهاهال بضربة منه على عارضة السياج العليا ثم السفلى جنب

واح ايفان بتروفيش ببصق وينفخ الطحين وقد بدا عليه الاسف فقال كلاما معقولا :

- ليتك تفكر ، بدلا من الضحك ، ما الذي نستطيع ان نفعله انا وياك ؟ لن نفعل ما يكفى حتى لكثرة . اين الآخرون ؟

- اراد المدير ان يجمعهم ...
- مديرك نسي ما اواد ... ذهب ولم يعد . فهو اليوم بدون دماغ .

مضى افونيا في هيئة تدك على استمداده للامساك بتلابيب اى كان وسحب الى هنا .

توقف ايفان بتروفيش والكيس على ظهره . قال اين يذهب به ؟ المسافة الى البوابة بعيدة ، واذا نقل الاكياس الى هناك يقطع طريقا لا موجب له . وعلى مسافة قريبة يتصبب السياج ، وهو يؤدى واجب الحراسة ضد الطامعين في كل الخيرات المتروكة على الثلوج والارمال . ومع ذلك لا بد من هدم السياج . وفجأة شعر ايفان بتروفيش بلسمة : اين الفأس ؟ اين الفأس التي اخذها من المنزل واقتلع بها الواح السطح ؟ اين تركها ؟ هم بالركض الى الحريق ، لكنه تذكر انه لم يستخدم الفأس فى المستودع الاخير الذى دمرج منه برميل الزيت ، معنى انه ترك الفأس نى مكان ما قبل ذلك . فاحترقت . احترقت الفأس التي هو بحاجة اليها لتهديم السياج اكثر من حاجته الى يديه . اخذ من المنزل حاجة وضيقها .

تذكر زوجته الينا من جديد ، وكان ويضف الذاكرة مشوبا بالقلق : ليت هذه الشهادة لا تتعرض لخطر .

الزبد فهو السراج ولاح من ورائه الدرب الملقوق المؤدى
الى جنينة رحمام ساقيل البتور اليد ، وهو من الفلاحين
الاسليين فى هذه البقاع . اقتلع ايفان بترويتش الطرف
الثانى من مقطع السراج ، وجاءه عندئذ رجل يمينه . لا
يجدر بالمو ان يدعش لشيء فى هذه الليلة . لكن ايفان
بترويتش دهش على اية حال . فالرجل الذى جاء يمينه
هو « العريد » ساشكا التاسع . ونما مقطع السراج الهاوى
وطرحاه على منحدر الطريق . ولو كانا قد فكرا فى ذلك
خصيصا لما وجدا وسيلة افضل تتخذ قاعدة لأكياس
الدقيق ، كيلا يلقى بها على الارض مباشرة .

— فلنقتلع مقطعا آخر يا ايفان بترويتش — امر ساشكا
بمرح ودعاه ، واتضح انه يعرف اسم ايفان راييه وليس فقط
الكنية التى الصقوها به : « السيد المحامى » .

واقتلعا المقطع الثانى ووضعا جنب الارل . وما ان
اوتقيا المنحدر حتى تداعى اول مستودع صناعى عند المنحنى ،
وهو يلفظ شروا وسط اثنين مديد . ظل الشرر يتناثر منه
وينطى على الصياح وينثرز فى الضوء . اسرع ساشكا الى
هناك ، ورأى ايفان بترويتش رجال افونيا يتراجعون عاتدين ،
فقد صبره وراح يبحث عن زوجته اليونا .

وجدها على بعد خمس خطوات عن كومة الحاجيات .
كانت قد نقلت اليها شيئا ومته بصخب رعن . وكان هذا
الصخب هو الدليل الوحيد على انها لم تأت خالية اليدين .
لفظ المستودع المتداعى موجة سائنة لفحت كاحليها
واوتفتها متعيرة . ولم تد تذكر من اين جاءت ولماذا
والى اين يتعين عليها ان تتوجه الان . اعتاق الجميع مشربة

صوب الجهة التى لا تزال تبث طفلة رشرا ، وهم يتصايحون
ويلوحون بايديهم ، لكن صيحاتهم جافة وتلويحاتهم
مصحوبة بقفزات وانفعادات وكأنهم فى لعبة ميكانيكية .
كل تصرفات هؤلاء الناس حينما اسلفوا بشكل سلسلة
رايديهم تتلف الاكياس والصور ، وتراقضوا فى الباحة
متزاحمين مرتطمين ببعضهم البعض وتحرشوا بالحريق مجازفين
بحياتهم وتصايحوا صارخين فى جوفه متناسقة قارة ومتنافرة
قارة اخرى — كل هذه التصرفات تنطوى على شيء غير حقيقى
اقرب الى اللهو الاله الجارى فى سورة من الحماس والفوضى .
اما الشيء الحقيقى الوحيد فهو الحريق الذى يلتهم كل ما
يصادنه فى طريقه ويجهز عليه بتركيز وبسر .

لم يمد الشرر يتطايىر على الدوام وخفت الطفلة اخيرا .
وفى الاسفل اعتذلت السنة الذهب من جديد وهى تلعق ما
تقرض من المستودع . وانارت الاركان المنقطعة بشملات
مشربة ومنحنية . بدا مستودع السلع الصناعية المجاور وكأنه
يتأرجح ويزبحر فى محاولة للفرد تحت اكليل عال من
الذهب ، لكنه لا يستطيع ، فهناك جدار مشترك يقيه من
الطرف الثانى ويربطه بمبنى آخر . وبالنسبة (ار بلا
مناسبة) تذكرت اليونا ما حدثوا به عن جزر اغرقت مع
لجبانها فى ضواى اوست ايليمسك فى اسفل انقلاوا ، لكنها
فلتت من القاع وطلت على الماء فاضطروا فيما بعد الى قصفها
من الطائرات . فى مستودع الاغذية القريب لم تشتت النار
لى مادة غذائية سكرية ، فسختت وظلت مشعة تبث ضوء
كفوه مصابيح كهربائية وغدا والمعا الان ان الناس لن
يلحقوا فى انقاذ اى مستودع .

قبل عشرين استغل ايفان بتروفيشش بالذكرى الثلاثين
فرواجه من أليونا. اخذا ايجازتهما السنوية في وقت واحد
وقاما بجولة لزيارة ايتائهما الذين تركوا المنزل جميعا بعد ان
كبروا. والحقيقة فهم ثلاثة لا غير، ايتان وابن. بدأ
من القريب الى البعيد، وزاوا، اول من زاوا، ايتهما معلمة
المدرسة الابتدائية في مركز الناحية، ثم ايتهما الكبرى في
اركوستك، وعندما وصلا الى هناك فوجئا بانها مريضة
في المستشفى. استلمت امرتها شقة في عمارة من تسعة
طوابق، في اهل طابق، ولم يكن المصعد جاهزا، فحملت
من اثاث البيت ثقيله وتخفيفه، وما كادوا يتسلقون الى الشقة
الجديدة حتى ألم بها المرض، فنامت في المستشفى.
وهي من هذه الناحية تشبه امها التي لا تعرف للعمل حدودا.
ولم يكن من المناسب طبعا ان يغادرا اركوستك في مثل هذه
الحال، لكن قانيا، ايتهما، اصرت على الرحيل. وحتى
ايفان بتروفيشش القروي المتحور على كل الصواب والذي لم
يتخاذل يوما صار بعد المرة المباشرة من الصعود الى الطابق
التاسع يرتش على الدرجات الاخيرة وتغور قدماء ويداء.
وقد اسود وجهه بشكل ملحوظ للكلمة التي افلتها اللسان،
فرغب في الرحيل الى ابد مكان عن اسباب الراحة هذه التي
تجعل اهل المدن اقرب الى الوحوش الكاسرة.
اما المصعد، كما كتبت ايتهما، فلا يزال عاطلا
حتى الآن، وقد شغل باب مهواه وسقط فيه شخص لقي
جثته. ففي اركوستك يجوز ما لا يجوز في اماكن اخرى.

ظلت اليونا واقفة الى ان وجدها ايفان بتروفيشش.
اوتعب من سكوتها بينما الجميع يتراقصون ويتصايحون.
عطا عطلاته الاخيرة خلسة وفاجأها من الامام. فانتفضت ولم
تسمعها الكلمات، فقالت:

— آه يا ايفان، انظروا، انظروا.

كان هناك ما يستوجب النظر. اربأت الى شخص
يتلوى في مكان بعيد الى اليمين، ينيره الضوء على اية حال.
شلع معطفه وداح يرتدى ثيابا اخرى باستمجال. كان هذا
الشخص من «المراييد». ايفان بتروفيشش يعرفهم من
سركاتهم القصيرة المتشعبة.

— ماذا يفعلون يا ايفان؟ ماذا يفعلون؟ ينهبون كل
شيء. وأيت كلافا ستريفوتوفا تملأ جيوبها بملب صنيرة
فيها حاجيات ثمينة ولا بد، فهي ليس علب مكواة. يخبأون
الحاجيات في عبيهم وفي جزماتهم، اما القناني...

— يا وبلك اذا اخذت شيئا— قال هذه الكلمات لمجرد
ن يلفظ ما غصت به حنجرته كيلا يخنق.

اجل، لن يقوى المم ميشا خامبو على منهم. فهو
يحرس البوابة كيلا يحملوا حاجة كبيرة، اما هم فقد
تحايلا بهذه الصورة...

— ماذا تقول يا ايفان؟ ما هذا الكلام؟— كروت
أليونا بدران استنكار، فهي تعلم انه ليس جادا فيما يقول— ما
حاجتي اليها؟ هل رأيتني يوما اسرق شيئا؟
فليذهبوا الى الشيطان، عسى ان يفتصوا بما يسرقون.
لم يذهب لتفريع ذاك «المرييد».

لم ينتفس ايغان بتروفيتش الصعداء الا عندما وصلا بالمنازة الى ابنتهما بوركا. استقبلهما في خابارونسك فروع القامة مثل جميع الشباب في بحيرة العيش الحالية ، وبدا واثقا بالكامل في بزة تجعل قوامه الرجول واضحا لعميان وتقلل من نوره وجهتيه الذي ورثه عن امه. لم يعد يسمى باسم الصبا ، بوركا ، بل صار يدعى بورويس ايفانوفيتش. بعد التخرج من مدرسة الطيران عمل ميكانيكيا في مطار صغير ، ومن حسن حظ أليونا انه يمارس عمله على الارض. في نفس اليوم استقل الثلاثة طائرة اخرى ، صغيرة ، اوصلتهم الى ذلك المكان. وهو بلدة جميلة سرفهة غارقة في الخضرة والظفافة. وبالإضافة الى ذلك كان الطقس رائعا في سبتمبر بدون امطار. يقيم بورويس في منزل بحديقة فيها مختلف الثمار والتفاح اللذيذ ، وقد تعلمه من حميه وحماته الذين شيئا منزلا اكبر في الحي المجاور. كان بورويس قد كتب عن ذلك مرارا ، الا ان ايغان بتروفيتش اعتبره مجرد اخبار مكتوبة ، حتى رآه بأم العين. هز شجرة التفاح وذاقه من غصن حبي ونجول في البلدة وتفرس في وجوه الناس التي لم يتلفها الادماء على المسكرات وقام بزيارة لصيد السمك ودهش لوجود كمية من الاسماك في جدول صغير اكثر مما في نهر انغارا العظيم ، وشعر بالفرح من اجل ابنة بوركا. المثل يقول ان الاحوال افضل في الاماكن التي لم ترها العين ، لكن الحال في هذا المكان جيدة بالفعل. والقضية لا تقتصر على الدف والتفاح ، فالمرء يشعر على الطمس الذي يعيش فيه. لكن المبة هنا ليست مرفهة ، والنظام اكثر ، وهو لا يستند الى التهديد

والفرامات ، بل الى الاعراف العامة المرحبة منذ القدم. تلك هي القضية. وحتى لو كان ايغان بتروفيتش يبالغ فيما ذهب اليه ، وهو لا يمتد بانة يبالغ قيد اتملة ، فان ذلك لا يقاس بالمقاومة مع الاحوال المتردية في بلدته سوسنوفكا. الح بورويس وزوجته على ايغان بتروفيتش وأليونا بان يتقلا اليهم. وايدهما في ذلك حموه وحماته ، فقد اصعبا بوالدي بورويس ، على ما يبدو ، ليساطلتهما وحسن مشرفهما. وقال الجميع انهم سيبحثون دون استمجال عن منزل ملائم بسعر مناسب. وتوجد هنا مزرعة حكومية ضخمة يمكن الحصول على صل فيها. وسيجتمع الشمل ، ولا بد للمجوزين من ان يستقروا جنب احد الابناء ، لا سيما ان احدا لا يرغبهما على البقاء في سوسنوفكا.

لا احد يرغبهما على البقاء ؟ كيف ؟ وسوسنوفكا نفسها ؟ والارض التي كرسا لها حياتهما ؟ وكمرت لها حياة الاجيال السابقة ؟ هل يجوز ترك ذلك كله للمراييد الذين يعرجون حل المقبرة ليقتضوا حاجتهم ؟ وقد كبسهم ايغان بتروفيتش ذات مرة في طريق العودة من العمل. ومن سيلتزم موافق الدفاع ؟ ام ان ذلك لا موجب له ؟ لقد صعدنا ونصعد امام العدو الخارجي ، اما العدو الداخلي ، فهو شأن القصر المحل افطع واشنع.

اذعن ايغان بتروفيتش لهذا الامر بعد هروته من ابنة ، وارتدى من جديد ثير الحياة البعيدة عن السررات في سوسنوفكا. لكنه صار يعرف ان الناس لا يعيشون على نمط واحد في كل مكان ، وبالإمكان طلب المون منهم. وبهذا الاعتقاد وأصل عمله حاملا صليب المتصبر في المباراة ، مع انه

لم تكن هناك اية مباراة : فاما ان تكون شيلا او لا ، اما ان تكون كادسا بالفترة او ثوارا بلا تقاعد . كان يتدخل ويعترض ويعرض نفسه للخطر ، ويرفق فؤاده المرة تلو المرة . ظل يعمل على هذا المتوال وانقا من ان اللابالية لا تمش في كل مكان . كان يتفحص اليأس والفنوط ويرشد الآخرين ممن لا يريدون التخلص منهما ، بل يتجنونهما سورا يحتمون به ... وليكن من يهدم الطوفان .
ظل يعمل على هذا المتوال .

لكنه في السنة الاخيرة شعر بعجز مطبق منذ ان وصل فريق « العرايد » ورسخ اقدمه ولم يمد فريقا موقتا من العاملين الموسميين . في السابق كان هؤلاء العاملون يترددون على البلدة باعداد هائلة ، يقيمون فيها بصحب وضجيج ، فيرى الاهال المحليون حقيقتهم ، ثم يعودون من حيث اتوا ليواجهوا ما خبأ لهم المصير . وفي مقبرة البلدة ما لا يقل عن عشرة قبور لعاملين موسمين وافتهم السنون صدقة فحطوا الرحال الى الابد . تردد على البلدة افلاس من كل شاكلة وطراز ، لكنها لم تشهد فيما سبق افلاسا « كالعرايد » . ولقد وصلوا رؤسا منظمين في قوة موحدة لها قوانينها ورؤاؤها . وجرت محاولة لتفريقهم ، لكنها اخفقت . اولسولهم لقطع الاشجار ليما وراء النهر فرفضوا . نلوا يعملون في المستودع السفلي ، جنب البلدة ، ويمارسون تشذيب الجنوح ودرجتها ، فهذا عمل يحتاج الى ايد ماهرة . لكنهم ماهرون في اصال اخرى ، فاهلوا عملهم الاصل . المنطقة تنص بجلوع الاشجار فلا تستطيع شاحنة ايفان بتروفيتش ان تصل اليها . الجنوح المشدبة محاصرة باكوام الاغصان المتبورة ، والنالو

تلثم الاغصان مع الجلود . الشاحنة تتوقف اضطرارا نصف ساعة حتى يساعدهم ايفان بتروفيتش في تنظيف الطريق من الاكوام . فينفذ صبره ويصيح ، ولكن لا جدوى من الصياح ، فهم يفتهمون ويمضون . وبعد ذلك يتصايح مع يوريس تيسوفيتش وغدا العمل بالنسبة لإيفان بتروفيتش بمثابة الاشغال الشاقة .

وفي البلدة ايضا لا يختلف سلوكهم من ذلك . ففي النادى بليارد باجور وفي السانوت نظام الطايبور للجميع ، اما هم فلا يدفرون الاجور ولا يحترمون الطايبور . واذا اعترض عليهم احد يردون عليه بقسوة لا يستطيع بعدها ان يجس اوصاله الا بمرور اسابيع . عندما واجه الناس كتلة لا سابق لوتيكوا وتسيروا وصاروا يتشاشون « العرايد » . والشئ الذي عجز ايفان بتروفيتش من فهمه هو وجود مئات من الناس في البلدة بينما اغتصب السلطة زهاء عشرة اشخاص . عندما اخذ يتأمل في هذا الموضوع اذك ان الناس تفرقوا وانزردوا قبل ذلك فانتهمز « العرايد » الفرصة واسترلوا على ما اعمل وظل متروكا دون استعمال . كان يتصور ، بل ويشق بان « العرايد » ، لو حلت مصيبة كبيرة عامة ، يمكن ان يتصرفوا كسائر الناس ، لهذا الهم لم يفقد بقايا الضمير . ولكن في ظل النشت وتردى الارضاع تجسمهم وتضفى عليهم حالة من الطيبة تلك اللوضى التي يتحسنونها جيدا ويندفعون اليها اندفاع الوحوش . فليس من قبيل الصدفة انهم وجدوا مرثا وملادا في سوسنوفكا . اما في سيرليكي التي يقيم فيها ليه فلن يجدوا مثل هذا الملاذ . لم يفادر البلدة منهم سوى

اثنين ، احدهما قوقازى تزعم الفريق فى بادئ الامر ثم اطاح به رفاقه وابعدوه على ما يبدو ، وبعد ذلك تسلم ساشكا التاسع زمام القيادة ، والاخر اصيب بعمامة اثر عراك فى حالة سكر ولم يمد الى البلدة بعد المستشفى . وهناك شخص ثالث ، اسمه سموف ، ترك الكتلة وانضم الى عائلة ناديا بوتشينالوفا التى غرق زوجها .

فى ديسمبر كان ايفان بتروفيتش عائدا من العمل فى طريقه من المستودع السفلى الى البلدة ، فاقف ساشكا التاسع شاحته فى منتصف الطريق ، وكان مع شخص آخر من رفاقه . توقفت السيارة فركبها ساشكا وسدده رغم وجود مكان فى القمرة لرفيقه . ساشكا فنى وسيم جميل ، فارغ القامة مكتنز البدن باعتدال . ووجهه مورد منير . لكن جماله مزعزع بمدعوك يجعل المرء يتحير فى فهم السبب ، فهو كأنما يتحشف ويتنفس من الداخل ولا يبقى منه سوى ظاهره . خلا صامتين حتى وصلا البلدة . فنزل ساشكا عند دوا العمال وقال بابتسامة مستهينة :

— اسمع ايها السيد المحامى ، يا بطل الكفاح والعمل ... لا شأن لنا بك ولا شأن لك بنا . اما اذا تمرضت لنا فستمرض لك .

وسرعان ما نفذت الخمرور فى الحانوت . نفذت فى كل مكان على يمين النهر ويساره . وعندما اشتد «العلش» «بالعرايد» زودوا زبيلهم صونيا بحقيبة ظهر وارسلوه الى المدينة . امضى اسبوعا فى الرحيل والعودة ، فقد تأخر فى المطار لسوء الطقس ، لكن رفاقه حملوا «بدلا عنه» دون ان يكشفوا عن سر غيابه . والحال فان متطلبات الخطة السنوية

فى قطع الاشجار قد ادت الى توتر الاعصاب ليل نهار . وعمل الرجل الواحد اغل من الذهب . عندما وصل صونيا مع الشراب تقلص عدد «العرايد» الى النصف . جاء ايفان بتروفيتش بالمدير وقال له : انظر ما يفعلون . فنى المدير «العرايد» من المستودع السفلى . ثم احادهم يوريس تيسوفيتش ، فلا بد من العمل على اية حال ، لا سيما وان الموضع الذى اهمله «العرايد» خطر كذلك لانه موضع «العرايد» بالذات ولا احد يريد العمل فيه .

فى يناير ، فى يوم معتكر الجو مبت فيه ريع شديدة وسقط ثلج كثير وسامت الرؤية حتى على بعد خطوات ، وصل ايفان بتروفيتش بشاحته الى المستودع السفلى وظل يتنظر التفريغ . انزبت رافعة التفريغ وغرزت الخنطاف فى الجلود والقت بها على المدحرجات . وكروت هذه العملية لتفرغ البقية الباقية من الجلود . واغتصروا الوقت اخذ ايفان بتروفيتش يفك المسانيد ، وهى ثقيلة للغاية . ولح المسند الاول وتوقف هنيهة ليلتقط انفاسه ، وما ان خلا خطوة وابعد رأسه من تحت المسند الحديدى الثقيل حتى افلت وصقط . انلت مع انه منصوب ومائل الى الداخل وكان من المستحيل ان يتحرك ، ولم يكن قد تحرك مرة . فى الجهة التى افترض فيها الجلود اثنان من «العرايد» . وقف ايفان بتروفيتش كان يعمل وتطلع اليهما وفكر قليلا ولم يقل لهما شيئا . فماذا عساه ان يقول ؟ وانصرف وهو يتأمل فى مصيره .

فى الاجتماع المخصص لمصيلة العام كوتى ايفان بتروفيتش بذكورة لشراء سجادة . فتنهض وعكر صفو

منذ حين من الزمان اخذ ايفان بتروفيش عفوياً يتابع زوجه أليونا بمزيد من الاهتمام . لا يتابعها ، بل ينصت الى المكان الذى تشغله جسده . فى ذهن كل رجل ، فى اغلب الفتن ، صورتان لزوجه ، صورتها كما هى ، وصورتها التى يريد ان يراها فيها . والصورتان تتقاربان قارة وتباعدان قارة اخرى ، تتكلمان بصوت واحد حيناً ، وليس لزاماً ان تتوافق الصوتان . والرجل ، دون ريب ، يميز دون خطأ بين قدوم احداهما وقدوم الاخرى . لكنها هى ايضا تعرف اية صورة ليها ، وتشعر بدم تلازم الانسان والزوجة فى نفسها . ويمكن قول الشيء ذاته عن الرجل بالبلط ، لكنه ليس موضوع الكلام الآن .

ايفان بتروفيش . واكثر ما حيره انه لم يلاحظ متى حدث ذلك ، ومتى كف عن تقسيم أليونا الى امرأتين ، احداهما لانها والاخرى له . عاشا معا اكثر من ثلاثين عاماً ، واندمجا ببعضهما البعض الى حد بعيد وتوثقت اواصر القربى بينهما ، لكل منهما تقبل ممدن الاخر الذى لا يد وان يعود الى ماواه الاول . ذلك واضح لا جدال فيه ، وينبى ان ينسب الى كل الذين التحفوا لحافاً واحداً عشرات السنين . لكن أليونا تتميز بنقطة خاصة اخرى . فقد تبدل صوتها ، وكأنها لا تتكلم شخصياً ، بل تتكلم من خلالها امرأة واحدة هى ام كل النساء فى الدنيا . هذا صوتها اكثر عمقا وغضارة ،

الاجتماع . رفض التذكرة . فهو ليس بحاجة الى السجادة . ليس بحاجة الى المكافأة والتكريم . انه بحاجة الى عمل لا يتعرض لضغط من الطرف الاخر حتى يتوقف ، وهو بحاجة الى حياة لا مجال فيها للثرات المتعمدة . اعرب عن رأيه هذا ، ولكن بلهجة عصبية تقرب الى الشيب ، فى محاولة لمعرفة السبب الذى يجعلهم يتظاهرون بان كل الامور حل ما يرام ، بل حل احسن ما يرام اذا ففلوا الخطة . الى متى تبقى الخطة تحجب وتبرر كل المساوئ الجارية داخلها ؟ لم يكن غيظ ايفان بتروفيش منسباً الى « المرابيد » - فما شأنهم هم ؟ - بل حل ابناء بلدته الذين تحملوا الضيم واذعنوا وصدقوا بان التغيير ، ايا كان ، انما يجرى لصالح العام . احسد ايفان بتروفيش وفص بما يقص مضجعه فى تأملات الليل : هل يمثل انه الشخص الوحيد الذى يرى ذلك ويفهمه ولا احد غيره يرى ويفهم ؟ واذا كان لوسده فما جدوى الرؤية والفهم ؟ وهل هما من الحقيقة بشئ ؟ الا يتحجج ايفان بتروفيش نفسه بذلك الاصرار ليبرر تمسكه باستقائه ؟ اتلفوا له جنيته المنزل مؤثراً ، بعد ان قدم طلب الاعفاء من الخدمة . ولعل احداً من الاهال قام بتلك الفعلة فى حالة سكر . ولو استفسر لأمكنه ان يعرف الحقيقة ، لكنه لم يكن راغباً فى الاستفسار . اما أليونا فقد لاذت بالصمت ، وهى تعرف الفاعل من كل بد . تحول زمله الى الآخرين ، من هو منحق منهم او غير منحق ، الى غيظ على نفسه لا اكثر . وليس هناك مخرج سوى الرحيل .

فهو يتساب في منتصف التيار دون ان يعيل الى الضفاف الناشئة . تضام تدمرها وتذرت كلماتها . فيما مضى كانت الكلمات تتناثر غزيرة وفيرة قبل ان تبلغ المراد ، اما الان فهي تبلغ المراد باقصر الطرق وادقها بدون تمهيد مدنى كما يقول ايفان بتروفيتش مازحا .

شغلت اليونا بشكل غير ملحوظ المكان الذى لم تكن قادرة عليه فى شبابها ، والذى يمكن ان يمت به « قنذاغ » الانثوية ، ذلك الشراب المعتدل الحلاوة . ففي اليونا انثوية كاثية بلا زيادة او نقصان . وربما فيها بعض الزيادة ، لكنها قابلة دوما للتصحيح والتعديل . ايفان بتروفيتش يشعر بوجود اليونا فى نفسه سواء كان فى المنزل او خارجه ، وهي تواصل خدمتها بلا كلل فتضيف الى طباهه شيئا او تقلل منها عند الاقتضاء ، وتبحث عن الصبر فيه فتجده وتقوده الى البيت . وفى الرحلات الطويلة كان يتحدث معها وراء مقود الشاحنة وهو عاوف بما ترد عليه ، فيتوصل الى قرار معين بعد ان يتشاور معها ويستأنس برأيها . العالم المتجسد فى اليونا انيق رقيق لم يبرد بمر السنين ، بل ازيد تفاهما ودقنا . الرجل الذى لا يتناهى منه صوت زوجته : « نمهل » سرعان ما يقدو وهما خاليا من الحياة ، وحتى لو عاش حياته فهو يعيشها كمن يرتدى قفطانا غريبا عليه . اليونا صغيرة القد مكتنزة البدن ذات قوام كقوام البنات . عندما تسير تراها تحوم وتعلق كالطير . ولا تزال على حالها حتى الان مع ان الوقت حان للتقليل من هذا الاوار . عندما يتطلع اليها ايفان بتروفيتش يتوقف منصفا ، وقد حدث ذلك مرارا ، يتخلص من فكرة فظيعة ، ربما هى من التنبؤات :

الاشخاص الذين يشبهون اليونا فى اندفاعها وجهودها المحمودة يقضون فى الحال دون ان يبقى لهم وقت للشكوى والتفكير التدويجى . فى حينه ، عندما اجهدها العمل فى المسابقة وشبعت من الشائتم والسياب وارتجفت اوصالها فى الرماء سألت ايفان بتروفيتش واخبرته بانها تنوى العمل امينة للمكتبة ، فاجابها : « وماذا ستفعلين هناك ؟ هل تفرغين من وراء زجاج النوافذ كالغراشة ؟ » . اجابها هل هذا النحو لانه لا يتصورها تمل جالسة كما هو الحال فى عمل امناء المكتبات . فهي لا تجلس حتى عندما تستدعى الحاجة الجلوس . وعندما تمل البطاقات تجدها واقفة متعنية على الطاولة او على رف النافذة . وتردد على القطاعات طول الوقت ، وتدرس الكتب حتى فى ايدى الذين لم يفتحوا كتابا فى حياتهم . ما اكتر الكتب التى جلدتها ايفان بتروفيتش : حوالى مائة . فى البداية جلد الكتب التى بطلها ، ثم جلد غيرها . وكانت اليونا تأتى اليه بالمزيد .

وهى ايضا مضطرة الى ترك العمل مع انه يسببها . لم يعمد الناس فى هذا الزمان على امتداح الزوجات ، ولكن ماذا يفعل ايفان بتروفيتش اذا كان لا يستطيع ان يصرعه الى البيت حتى امام الخالق نفسه ؟ ما ان يتذكرها واذية زوجها ، معتدرة بصياح متقطع لاهت ، حتى تبتسط اسديرة وتلمس راسه . يحسبان الشئ معا ، هو صامت ، وهى تتكلم نياحة عنه واصالة عن نفسها ، فلا يفرق بين كلماتها الصائبة وكلماته الصامتة ، كل ما يعرفه انهما تكلمتا قدر ما يريدان بنفع والتذاذ .

الصندوق بلمح البصر وأحاطه على الذهب . وفيما بعد ، عندما ملأوا الصندوق من جديد لم يتمكن إيفان بتروفيش من رفعه من الأرض إلا بشق الأنفس . أما اليونا فقد رفته قبل ذلك بلمح البصر .

- لم أزل به بنفسى - قالت اليونا بسداجة - كان هناك من أراد أن ينفذك فأخذ يدي وحملنى الصندوق بقرته ، أما أنا فلا أتذكر شيئا . لم يكن الصندوق ثقيلا على الإطلاق . ما أكثر الأحداث المشابهة التى ساعدنا فيها أحد ما ، فحملت ما لا طاقة للإنسان بحمله .

عندما جاءها إيفان بتروفيش وقال لها : خلاص ، قررت أن أقدم العريضة وافقت :

- طيبا ، يا إيفان ... فريد أن نرى بوريس ... لقد تعلم أن يسمع من كلامها حتى ما لا ينطق به لسانها . فريد أن نرى بوريس ، ولكن ليس بهذه الصورة ، ليس بهذه الصورة ...

١٥

لم يبق أمامهم سوى نقل المزيد من الأكياس . قرب إيفان بتروفيش كتفه منها واتقى عليها بكيس من أعلى الصفوف وحركه ليستقر بشكل أفضل ثم استدار صوب الدقة الذهب المتهاجة كشعابين تداهم الباب . شق لنفسه منفذاً وهبط إلى الطريق . ذلك عمل تعود عليه من السابق . ولولا المصيبة ، لولا الحريق ، لوجد فى نقل الأكياس متعة ، وذكرى بدنية ، وليس ذهنية صرفا ، لشبابه وفتوته عندما كانت

الزوجة كيان مستقل : مخصص لحياة مشتركة ، لكنه مستقل بالتأكيد . فالبعض يسمون إلى التقارب مدى العمر ولا تقارب هناك . أما اليونا فهي بالنسبة لإيفان بتروفيش أكثر من زوجة . فى هذه المرأة الصغيرة النشطة اتفتت كل مقومات الانوثة الفناء الثالث فى شخص واحد . الكوائى يبدآن الجهد كل يوم من أيام الحياة لا يحفلان عادة بالتقدير . جهنهم تعتبر من الضروريات العادية كالسوء والهم ، ويراد منهم شئ أكثر ، لا علم لاحد به . لم يتعود الرجل فى روسيا هل العيش مع المرأة كزوجين فى يدن واحد . أما اليونا فلم تكن تهوى نفسها وتقدم على التفضيلات . سلوكها تابع من طبيعتها ، من روحها ، ولو لم يكن هناك شخص تبغى رضاه وتظهر عليه لبغت عروقها وفتوت . وهى تجزل العطاء من أجل الحياة المشتركة حتى لا تبقى لنفسها ذرة ، فكانت خالية خفيفة فعيلة الوجه والبدن ، تبسم سعيدة راضية ، وهى تأوى إلى الفراش ، لتستجمع قواها من جديد خلال الليل كيلا يبقى أى مجال لتصورها على خلاف ذلك . لعل كل رجل يحتفظ فى ذاكرته بحادث يكشف عن مدون زوجته : ذات مرة ، فى فترة بعيدة ، منذ أن كانا يقيمان فى يانوروفكا ، انبطح إيفان بتروفيش تحت الشاحنة وسحركها يشغل مكشوقا . الشاحنة عتيقة من طراز « زيس - ١٥٠ » . وفجأة التهاب المحرك ، ولم يكن إيفان بتروفيش يعلم بأن البترين يتر من مكان ما . علم بذلك فيما بعد . تحير وهو منبطح على الأرض وارتبك متجسدا . ولم يقفز من هناك إلا بعد أن أحس بشئ أهيل عليه . فى الزكن أمام المنبر صندوق رمل أمد للشقاء . اختلطت اليونا

القرية كلها تسهر على القمع والرفيف . فيما بعد ، اثناء عمله في مؤسسة الاخشاب ، كان ايفان بتروفيتش يأخذ حصة من الطحين ، كلما صنعت الفروسة ، ويمصرها بين اصابمه ويتنظر ان تتراعى ، بعد وخزة الشعور الموير بالاذنب ، كرتين المنبه ، لوحات الحصاد في عرق البجين وهو اصف الغبار والشمس اللافتة .

في البداية كانوا عشرة رجال انكبوا على نقل الاكياس الثقيل ، واطلحوا في اخلاء الاكياس العليا بسرعة مندفعين بحماس وهياج . كان اثنان او ثلاثة يتزلون الاكياس من اعل الصفوف والباقيون يثقلونها ويحملونها الى الخارج . اخذ ايفان بتروفيتش يتطلع الى الاكياس السكر ، فيستولون اليه قريبا لاختلاته ، لكن هذه البضاعة حلوة في الفم ورة على الظاهر . بيد ان ايفان بتروفيتش الذي لم يرفع بصره ولم ير شيئا في الواقع سوى الاكياس والطريق لاحظ ان عدد الاشخاص تضاعف وتقلص ما يحملونه من مستودع الاحتياط . عدل قامته فرأى ثلاثة اشخاص فقط : افونيا رسافيل المبتور اليد الذي يقع منزله على مقربة من المستودعات وفي آخر لا يعرفه تماما يترنح عاريا تقريبا .

- افونيا - صاح ايفان بتروفيتش - ماذا حدث ؟ لماذا ذهبوا ؟

- هناك امتع - اجاب افونيا واكضا - امتع ، هل انت فاهم ؟

وراح ايفان بتروفيتش يلتقي بالكيس على الكتف ، ويمدله وضيمته ثم يلقيه على الارض ، ويركض شوطا قصيرا ليمد القلب الذي يتقاذف بين الضلوع الى موضعه ، ويلقي بكيس

آخر على كتفه ويمدله ثم يلقيه على الارض ، وهكذا دواليك . والحال فقد فارق الشباب من زمان . الكيوات تزداد وترتقى الساقان ويتشر القلب وهو يبحث عن موضعه . حتى افونيا الضخم الملاق الذي كان يعمل في البداية كسين كل مرة صار الآن يركض منكس الرأس بكيس واحد .

جاء بوريس تيموفيتش واصطف معهم يحمل الاكياس مساقا لسلطة الاحداث الغفوية . الا ان افونيا وايفان بتروفيتش طلبا منه بصوت واحد الا يجهد نفسه عبثا ، فالأفضل ان يرغم الرجال كل السجى . انصرف بوريس تيموفيتش فودنيكوف ثم عاد من جديد معه هذه الاشخاص بينهم « عريدي » في حالة سكر تقريبا . وحاول هذا الاخير ان ينظم سلطة من الرجال كيلا يحملوا الاكياس على الظهور بل يسلمها الواحد منهم الى الآخر . فانهاك افونيا عليه وعلى اصحابه بالسباب وامرهم بالانصراف فنفذوا الامر دون ابطاء . ولم يبق منهم سوى اثنين ممن يمكن الاعتماد عليهم ، وهما سيميون كولنيسوف وهراد الكراج تيبلياكوف . ولاح امام الانظار مرتين او ثلاثا وجه ساشكا التاسع المغوار ثم اختفى من جديد .

لم يمد واضحا اى الاكياس اكثر ، ما نقل منها الى الطريق او ما تبقى في المستودع .

لاحظ ايفان بتروفيتش ان تيبلياكوف اخذ يحمل اكياس الحبوب . وربما كان مصيبا ، فلا يد من انقاذ شيء منها على الاقل . يجب انقاذ كل شيء ، لكن اللبيب في المستودع الاقرب شدد الضغط وراح يقطع تقصيرا للهجوم ، وقد تسخن كثيرا الجدار المشترك بين

المستودعين حيث تستقر اكياس الجبوب. قرو ايفان
 بتروفيتش ان يساعد تيبلياكوف بالتناوب، ليأخذ كيسا
 من الدقيق ثم كيسا من الجبوب وهكذا دواليك. اكفهر
 الجور في الداخل وجسد وسط سحابة كثيفة من الدقيق المتطاير ،
 ونغشت الألسنة من وراء الابواب وراحت تومض على اكياس
 السكر وحدها. صار الهواء الساخن يندفع بشدة متزايدة
 من اليسار عندما يدخلون راكضين ومن اليمين عندما يخرجون .
 لم يكن ايفان بتروفيتش يرى او يسمع شيئا والاكياس
 هل نظره. القلب يدوى ويفعل هل سائر الاصوات فتبدو
 مكبوتة وكأنها رجيع ضعيف وسط النبط الهادر الذي يمزق
 الصدر. اشتغل كل شيء امام ناظري الرجل ، الحريق
 في داخله والحريق الحقيقي ، هذه النيران وتلك تنفجر
 وتقل في وقت واحد. من الهميب اذبال ايفان بتروفيتش ،
 فرمى الكيس وارتمى في اثره على الارضية الخشبية ، ولسط
 نظرتة على اول بنابة صادفته فتشبث بها كيلا يفسى عليه .
 كافت تلك بنابة الحمام . خرج منه فجأة شخص يدل
 مظهره على انه صاحب الحمام سانبل البتور اليد . هبط
 الى الطريق وهو ينموس في الآثار المبققة على الثلج . الرؤية
 جيدة لمسافة بعيدة ، لكن غشاة اندلعت على عيني ايفان
 بتروفيتش ولم يكن بوسمه ان يجزم هل خرج احد من الحمام
 فعلا او خيل اليه .

وخيل اليه ايضا ان عجوزا في معطف فرائي قصير مرفوع
 البائة تغلف الزهور على حافة الطريق . كانت تسير وتلتفت
 ثم تمنحن وتطفل الزهور على جبل وتلسها في حقبة ، وبعد
 ذلك انتقلت الى السحدر الثلجي الآخر . هرفها ايفان

بتروفيتش عندما التفت صوبه وأسف لانه عرفها ، وادرك
 ان تلك ليست زهورا . فاية زهور تنبت في الثلج ؟ تلك
 المعوز التي لم يلاحظ عليها احد شيئا من هذا القبيل كانت
 تجمع الثنائي التي التي بها من باحة المستودعات ، ولم
 تكن الثنائي فارغة بالطبع . اهل ، لم يلاحظ عليها احد
 شيئا من هذا القبيل ، ولكن سادنة هذه الليلة ايضا لم يسبقها
 شيل .

من وراء الركن الواقع جنب نهر انفاروا شفق الهميب الى
 عنان السماء ، فوق آخر مستودع ، فوق مستودع الدقيق .
 قفز ايفان بتروفيتش وفهم السبب في عدم وصول المزيد من
 الاكياس الى السحدر . ساروا يخرجون الاكياس ويلقون
 بها على بعد خمس شطوات من الباب ، فلا مجال لحملها
 مسافة ابعد .

وعلى الطرف الآخر من الحريق ، عند مستودعات السلع
 الصناعية التي اندلعت فيها النار باشد ما تستطيع ، صف
 بشرى غير مستقيم . ومن هناك يتناهى صوت يوريس تيموفيتش
 حادا يقطي على صخب الآخرين . اصطف الرجال ليعملوا
 دون وصول النار الى الحانوت . فاذا سلم الحانوت سيصدقون
 بانهم تغلبوا على الحريق تقريبا ، بل كادوا يتغلبون عليه
 بالكامل .

وسط الباحة راح العم ميشا خامبو يقفز ملوحا بيده
 السلبية متمايلا حول كومة العاجيات التي امكن انقاذها .
 واذا نظرت اليه من بعيد يخيل اليك انه يميل الى الدجاجة
 فراخها التي فرت منها .

لم يد هناك موجب لوقوله في البوابة ، فقد فتحت الآن
 كل الجهات والابواب .

ألم ميشا خامبو تجسده حتى لروح ثرية ينوروفكا ،
وهو مشلول منذ الطفولة ويده اليمنى تنفذ كالسوط ولا تكاد
تصلح للمساك بشئ . وهو يتكلم بمتهى الصعوبة حتى
يتعذر على الغريب ان يفهم ما يقول . « خامبو - و .
خامبو - و » - كان يطلق الحرف بعد الآخر ممطاً اللفظ
امدا طويلا وهو يستخرج الكلمة المطلوبة من الاعماق
المتكلسة ، واذا رفق في استخراجها يردفها على عجل بكلمة
« نعم » المتواجدة عنده فى مكان غير بعيد ، ثم ينور وجهه
بابتسامة سعيدة . والذين يعرفون ألم ميشا خامبو يعملون
لاسمائه بالكلمة اللاحقة ، وعند ذلك تجد وجهه الاسمر
المرقش مشرقاً منوراً وهو ينى برأسه ويكرر : « نعم ،
نعم » . عندما يجازى هبة احد البيوت يقول : « خامبو - و » ،
فيستقبله صاحب البيت او صاحبه دون اى شعور بالحرج :
« مرحباً بك ، تفضل . تقول كنت فى الحانوت ؟ والطابور
كبير ؟ وطيخت طعام الغداء ؟ طالما تغديت فاجلس اذن
لنشرب الشاى معا » .

لا داعى للكثير من الكلام حتى يفهم الناس بمفهوم
البعض . فهم يلجأون الى الكلام الكثير عندما لا يفهمون
بعضهم بعضاً .

ألم ميشا يعيش وحيداً . توفيت زوجته من زمان ،
وكانت من النازحين ابان الحرب العالمية الثانية . سهرأ مما
هل تربية ابن اخيه حتى خدم فى الجيش ونسرح منه ثم
ارتحل الى الشمال . وهناك كسب مالا كثيراً لمهارته وحلقته
وحسن تعلمه منذ الطفولة ، لكنه لم يرسل لعمه وزوجته ولا
كوبيكا واحدا . ألم ميشا يمل ثيابه ويدبر اموره بنفسه ،

ويربى خنزيراً ويعمل فى اعداد الحطب بالاجرة وغم بلوغه
السجين . كان يتمتع بقوة خارقة ، وقد تمرد على القيام بأى
عمل بيده اليسرى وحدها . كان فى السابق يتمتع بقوة خارقة ،
اما الآن فلم تعد قواه تسده . وعندما يعد الاسطاب يترز
الناس فى حطبة ويتطلع طويلا ويستهى الاهتمام الى نور
انفادار المتجلد شاة او الجارى صيفا .

فى بعض الاحيان يحاول ان يقول شيئاً عن انفادار ،
وعل الاكثر عن ينوروفكا التى غرقت تحت الماء ، فيرى
بيده صوبها ويختنق بلفظة « خامبو » ، لكن السامعين لا
يسمفون هذه المرة بشئ سوى ذكر اسم القرية القديمة .
فيكتب ألم ميشا وينصرف عنهم .
فهو يريد ان يقول شيئاً ذا بال .

ألم خامبو حارس بالفطرة ، حارس من تلقاء ذاته .
ليس بسبب عاهته ، كلا ، فهو يجيد القيام بأى عمل ،
ويكره مرات دون كلل . تلك هى طبيعته . فمن بين مئات
وآلاف الوصايا التى لا يستوجبها دماغه اخذ بالوصية الاولى :
لا تشرق ، لا تمس مال الغير . ولله يعزو كل مصائب
العالم الى سبب واحد هو ان الناس يمسون مال الغير . كان
ألم ميشا يقدم بتهى الرغبة على كل انواع الحراسة : فى
كولنوزو ينوروفكا سهر على صيانة الحصن ، وتنفذ
الحقول على ظهر فرس عابا بعد عام ، وقضى القليل فى ببادر
القمح ، وفى النهار كان يتردد فى اوقات الفراغ على حظيرة
الابقار واسطبل الخيل . ولم يطالب مطلقاً باجرة مقابل
هذه الساهرة ، معتقداً بأنه ولد بتمريدة توجب عليه حماية
الاموال العامة . وفى البلدة الجديدة التى انتقلوا اليها وشيدوها

كان المم ميثا بمثابة القومندان يتابع الجميع ويتدخل فى كل ما يتطلب حراسة وحماية . تعود عليه الاعمال بصفته هذه ، ولم يخطر فى بال احد منهم ان يلومه او يقرعه على تدخله فيما لا يعنيه . لكن السرقات كانت فادرة فى السنوات الاولى . واذا حدثت سرقة كان المم ميثا يتألم اشد الالم . ففى اعراف الحياة الدنيا لا توجد بالنسبة له مصيبة وغسارة امر وادى من السرقة . كيف سهوت يا هم ميثا ؟ كيف هفوت ؟ - كان يساله البعض ممن لا يتأثرون بالام الغير ويعرفون جيدا ما تسفر عنه هذه الكلمات . وهى تسفر دوما عن شىء واحد : المم ميثا يحاول عشا ان يطلق بشىء ليبرر تقصيره ويتجنب لاقه يمجز عن التلق بكلمة سوى « خابو - » التى تمزق روحه ويهتز لها بدنه الضخم وتنهمر الدموع على خديه وتبدد من يده اليمنى حركة متشعبة فى محاولة للاشارة والايماه .

تكاثر السرقات بمر الزمن ، وما كان العمر سيطول بالمم ميثا لو انه ظل يواجه كل سرقة بمثل هذه المعاناة . فاضطر هو الآخر ان يعود على السرقات . لم يعد يرتش كالصعوق عندما يسمع اخبار السرقة والاختلاس ، ولا يسرع الى كونه كيلا تلوح عليه آثار الضعف والمرض . وجهه يتخشب ليبر عن تركيز مكثف تنتفع فيه حياته كلها وتذوب . ولا تظهر عليه ابهةامة الاعتذار من جديد الا بعد وقت طويل .

ثم ان لصوص هذا الزمان تبدلوا وتغيروا فلا يعرفهم حتى الشيطان . صبية كبار يقتحمون قن الدجاج ويقطعون رؤوس الديكة ارضاء لمصلحة شابة فى العيد . وآخرون ممن لا يعرفهم

بأكل او ملبس يسرقون طامعا اقتته عجوز طاعنة فى السن من الحانوت لتطعم اشخاصا وافقوا على اعداد الحطب لها . ان يشارك فى الهجوم على قن الدجاج شقين المصلحة التى احتفلوا بالعيد فى منزلها ، ولم يصادف ان يقتحم سرداب السجوز نفس الاشخاص الذين جلبت لهم الطعام ووطعوا باعداد الحطب ، لكنهم لم يقوا برعدهم بعد ان سرقوا الطعام . ليس هؤلاء بلصوص ، وانما شياطين غشاة .

بعد ان عزم ايفان بتروفيش على الرحيل اخذ يطيل التأمل والتفكير : ما الذى يحتاجه الانسان كى يعيش خال البال ؟ اذا كان لديه عمل لا ينقل عليه كالاغفال الشاقة ، واذا كانت لديه اسرة يتوق اليها ، فما الذى يحتاج اليه اكثر من ذلك حتى اذا استيقظ صدفه لن يرغب فى انتظار الصباح ليواصل التقدم المنشود ؟

الايراد الوفير ؟ .. اجل ، الايراد ضرورى ، فبدونه يتقلقل الانسان كالنظم المعروق . لكن الايراد ليس مجرد احتياط فى النفس ولا جملها ولستقبلها ، ليس فقط ما هو ضرورى اليوم وغدا لتطمين حاجة البدن ، بل وما هو كان الحال كذلك لهانت الامور . لكن السجل فى ركن الحظيرة الدافئ يعلم علم اليقين انهم يستنون من اجل النجاة ، فمع ان عينيه صغيرتان غائستان لكنهما تريان ان

وجود الذين يعيشون ليس من اجل التسعين لا يقتصر على
مفخ الطعام وحياتهم لا تنحصر فى انتظار الطعام . الانسان
الذى طوق نفسه بحشد من معاونين يؤمنون له الايراد ملزم
بان يكون لديه داخل هذا الايراد شىء ما يتميز فافع من
نفسه وليس من الطمع والجشع ، شىء اصيل خلاق يراقب
الايراد ويرغمه ، خلافا لطبيعته ، على الخجل من الوفرة
والاقرط .

طيب ، فلسترك الايراد ال ما بعد .

الانسان يمارس العمل ليس فقط من اجل صاحب
الجلالة البطن . فما اكثر الذين لا يعملون او لا يكادون
يعملون لكنهم يملأون بطونهم لا اسوأ من الآخرين . لم
بعد ذلك من صواب الامور .

العمل هو ما يبقى بعد الانسان . فالانسان يزول ويندو
صلا بالنسبة للآخرين ، اما صله هو فيبقى امدا طويلا
ذكرى له فى اذهان الذين يأتون بعده . هكذا يقولون ، وهو
كذلك بالفعل ، لا سيما اذا كان عمل الانسان ينصب فى
نهر قاف . ثمة فهران احدهما يجرى فافع والآخر يجرى
لا نفع فيه . والحياة العامة تسيل صوب البحرى الاقوى .
الا ان ذلك . يؤخذ بالذمى العام ، بالفاهيم الكبرى التى
تجاوز الانسان . فما هى مشاعره هو ايفان بتروفيتش ،
الذى يتوجب عليه ان يقطع غدا عشرين او ثلاثين كيلومترا
ليجلب خلال وجبة العمل الكمية المقررة له بالامتار
المكعبة من الاخشاب ؟ يذمى ان لغة الكلمات نفسها :
الكيلومترات والامتار المكعبة والاخشاب لا بد وان تحدد
المشاعر وتجعلها تدور حول النقود . ولكن ، كلا . ليس

الامر كذلك . ليس كذلك تماما . ليست النقود هى التى
تدفعه وتستحثه وترغمه على شحن السيارة الى اقاصها وتوفير
الوقت لرحلة اضافية ، بل العمل نفسه الذى يحتضن مشات
الناس معا . اثناء العمل لا يتذكر ان ما يقوم به هو كيلومترات
وامتار مكعبة ودورلات . فهو يتجاوزها ويتشأى الى
مستوى اعلى لا اثر فيه للمحاسبة ، لا شىء فيه سوى الحركة
والثورة والفرصة . هناك يتحرك دوما بالسليقة ، على الماشى ،
ولذا فالحركة سهلة يسيرة . على الماشى مع من ؟ مع ماذا ؟
يصعب عليه ان يجزم على وجه التحديد . ربما مع الروح ،
مع طبيعتها الاول . فهو هناك ، بكيانه كله ، يتحول الى
استجابة لدعوة سريعة فائقة ، اوتار ووجه تنفتح . وتطلق ،
لتنبعث منها الانغام مفتحة طليقة .

اجل ، انه شغل كادح وهو يعرف بانه شغل كادح ،
ومن هذه القمة التى يرتقيها اثناء العمل تبدو له الحياة اكثر
مثانة وامانا مما سواها .

حياة الانسان تستقر على اربعة اعمدة : المنزل والاسرة ،
العمل ، الناس الذين يقضى العطل والاعياد وسائر الايام
معهم ، الارض التى يقف عليها منزله . وكل من هذه
الاعمدة الاربعة اهم من الآخر . اذا مال احدها مالت
الدنيا كلها . فالعالم فى انتظار الاطفال وحدهم يبدو كهدية
صحريه رائحة ، يغمره نور الشمس وتملأه طيبة البشر . كلما
ابتعد من العفولة كشفت الشمس العالية عن الاوتياك والتشويش
فيه . فى سن الفترة خيل لايفان بتروفيتش ان ذلك نقص
فى الانجاز والبناء اثناء عمل سهره طويلا يتطلب المرافعة
والاستمرار لكنه ادرك فيما بعد ان العالم تززع وتضعف

على اسمه القديمة لعدم اكتمال بنائه وان الناس يواصلون
باستعمال تشييد الابنية الجديدة على اسس مزعومة دون تثبيت
او استاد .

يبدو ان البشر في اى زمن من الازمان لم يقتنروا من
الميل الشامل الى الخير والشرور الكامل اليه . فكان هناك
دوما اثنان او ثلاثة من المياليين الى الشر مقابل كل ميل
الى الخير . لكن الخير والشر يختلفان عن بعضهما البعض
ولكل منهما صورته المحددة . فلا احد يقول ان الشر
جانب عكسى من الخير . ينلس الوجه المتطلع شزرا الى اليسار
وليس الى اليمين . والاعتقاد السائد هو ان الشر قوة
كالكوثية ، غير متجهة بعد صوب دين اخلاعى افضل ،
قوة تفعل الحماقات بسبب طبيعتها الهمجية غير المتطورة
دون ان تفهم بانها تفعل حماقات . لو امكن رسم حد فاصل
بين الخير والشر لاتفصح ان قسما من الناس تجاوز هذا
الحد والقسم الآخر لم يتجاوزه بعد ، لكن الجميع كانوا
متجهين صوب جهة واحدة ، نحو الخير . وكان عدد
اللاهيين الى هناك يزداد مع كل جيل جديد .

ولكن لا احد يعرف ماذا حدث بعد ذلك . من الذى
ارعب اولئك الذين عبروا الحد الفاصل الى الخير . وتلقوا
لمسه ؟ لماذا عادوا ادراجهم ؟ لم يعودوا دفعة واحدة بخشد
متدافع ، لكنهم عادوا ، فصار طريق المرور عبر الحد
الفاصل ذا اتجاهين ، واخذ الناس يتجهون ذهابا وابابا
ويميلون في ود الى هذه الشلة قارة والى تلك قارة اخرى حتى
فاسوا وسحروا الحقل الفاصل بين الخير والشر ، فاشتعلوا
وتحول الخير الخالص الى ضعف وتحول الشر الى قوة .

من هو الانسان الطيب او الردى فى مفاهيم هذا الزمان ؟
كلام فارغ . مصطلحات متيقة ظلت فى اللغة كذكرى لايام
زمان عندما كان الناس يتحدرون الكرم ببساطة وسذاجة
آلامه . اما الآن فالانسان الطيب ، فى الممارسات المعيشية ،
هو ذاك الذى لا يتصرف الشرور ولا يتدخل فيما لا يعنيه
ولا يقف فى وجه اية فعله . لم يعد معيار الانسان الطيب
ميله الطبيعى الى الخير ، بل اختيار الموقع المريح بين الخير
والشر ، ودرجة حرارة الروح المعتدلة الثابتة . ما شافى
اننا ؟ كان منزلى فى الطرف ففقلته الى الوسط ونسحت نافذتين على
الجانبين ! ما كان فى السابق يقترب خطا صار دليلا على الفطنة
والاهن التستير . وما كنا نبتدع ماشين طوال القرون عدنا
اليه راكبين ، عدنا مسرعين بالمحركات ، معلنين ان اعظم
انتصار للانسان هو ابتعادنا ماشين على الاقدام وعودتنا
راكبين بالمحركات .

اما الايراد فهو موجود ، ويكاد يكون وفيما ، ومع
ذلك لا يشعر الانسان بثقة لا فى يومه ولا فى غده ، وكأنه
يرتجف ويجهل ببصره قلعا . فالايراد اذن ، غير زكير ،
ندرة ندرة فى بعض الامور . لعل اولها ندرة الشخصية ،
افضل . الفارق بين ما آل اليه الانسان فعلا وما كان سيؤول
اليه هو جزاؤه على كل اثم او انحراف .

بعد تأملات ملوية متفككة تناولت كل ثلثايا الحياة
وترجائها توصل ايقان بتروقيش الى خلاصة فتقادم ان
الانسان يجب ان يشعر بانه فى داره فتيلا له الحياة عندئذ

- اذا اوتحلت انت رايانا فمن سيبقى ؟
- سيبقى غيرنا .

- من ؟ من سيبقى يا ايفان بتروفيتش ؟ - فدت عن
هل يعقل اننا سنترك الامور بهذه الحال ؟! نقضى على الغابات
عن آخرها ونترك الارض فى كف القدر ؟
- تميت كثيرا ، يا افونيا ، انتهيت . الا ترى اننى
لم اعد صالحا لشيء ؟
- وينوروفكا ؟

- وما شأن ينوروفكا ؟

ظن ان افونيا سيقول : انها فى نفوسنا ، فى الفؤاد .
واذا رسلنا من هنا لن يبقى لها ذكر ، وادنا موجودين
فى هذه الانحاء تبقى ذكراها حية . ظن ايفان بتروفيتش
ان افونيا سيقول مثل هذا الكلام ، لانه هو نفسه يفكر على
هذا النحو . لكن افونيا قال :

- هل تستطيع ان تجد الموقع الذى غرقت فيه ينوروفكا ؟
- لا ادرى . سأجده اذا حاولت .

- اريد ان اضع هذا الصيف علامة او عوامة على الماء
فوق موقعها تقول ان ينوروفكا كانت كادحة لا اسوأ من
سائر القرى ، كدحت وعملت من اجل امنا روسيا .

- كيف تضيع العوامة ؟ من يسمح لك ؟

- ومن يمنحني ؟ ليس هناك قانون يمنع ذلك يا ايفان
بتروفيتش . لم اسمع بمثل هذا القانون . لم اسمع به ابدا .
اذا كان بالامكان نصب العلامات على الارض فما المانع
من نصبها على الماء ؟

محتملة مقبولة . يجب ان يكون فى دارة الروحية ، لا
كترليل . غريب ، يجب ان يعيش فى نفسه ، فى شخصه ،
فى دخليته ، حيث لكل شيء موضعه المحدد ووظيفته
المرسومة من قديم الزمان . وبعد ذلك يجب ان يكون فى
داره المادية ، فى المنزل او الشقة التى يذهب منها الى العمل
من جهة ويعود فيها الى نفسه من جهة اخرى . واخيرا يجب
ان يكون فى دارة الكبرى ، فى وطنه الام ، فى ارضه ،
لم يجد ايفان بتروفيتش مأوى فى اى من تلك الديار .
الارض التى لم تفرقها المياه افسدا قطع الاشجار وتخزين
الاخشاب . ولم تد بحاجة الى رعايته . وفى دخليته اختلط
العابيل بالنابل وانقلب كل شيء رأسا على عقب كما فى
عربة محطمة منكسرة . وطالما لم يجد مأوى هنا او هناك ،
فلن يجده بينهما مهما بذل من جهد .

- يقال انك عزمت على الرحيل . حقا ؟ - سألته افونيا
عندما خرجا معا من الكراج بعد العمل . فقد سرى ثوبا العريضة
التى قدمها ايفان بتروفيتش .

- نعم .

- وماذا يفعلون هناك ، فى المكان الذى سترحل اليه ؟

- يزورون القمح . يحرقون ويبلرون ثم يحصدون .

- الا تذكر كيف كنا نعمل فى ينوروفكا ؟

- والاجود ؟

- اقل ، فى اغلب الفلز ، لكننى الآن لست بحاجة الى
الكثير .

لم يكن هذا ما سأل عنه افونيا ولا ما اجاب عنه ايفان
بتروفيتش . ليس هذا قصده . فمقب افونيا قائلا :

واصاخ ايفان بتروفيتش الى العقل السليم فقال :
- تلك مجرد العاب . هل انت طفل صغير لتلعب بها ؟

وهل تلعب السلوى لاحد ؟

- آه ، يا ايفان بتروفيتش - فهذه افوليا بطلاقة ولكن
يدون تنفيس ، فهذه بمرارة من اعماق الروح - احسب
بنفسك : ما اكثر الالاعاب حولنا ... ربما لن تكون
لمبتى زائدة ...

وبلغ زقافه فذلف اليه ومضى .

١٧

ايفان بتروفيتش وافوليا يخليان الاكياس كالعادة
بجهد جهيد طالما لم تقتحم السنة المهبب الممكن ، وعندما
اقتحمته هرع اليهما الآخرون ، فزدحم بهم المستودع
الاخير وفار كالرجل وهو يلفظ رغوا اقرب اذ البياض ،
حيث تقاذفت منه عشوائيا اكياس الدقيق والحبوب واسكر .
كان الجميع يتدفقون الى حيث النار والسمار . وليس في
ذلك خير ، فهم يتدفقون الدقيق ، ولا افضل منه في الدنيا .
ولكن لاح بعض السكارى بين المنفذين . امسك ايفان
بتروفيتش بأحدهم ، وهو الفتى الذي خلق منه الواح السقف
ثم ساعده في افقاد الزيت . امسك بتلابيبه وخلصه من جحيم
الحريق ، وهو في حالة سكر شديد . دفعه الى منحدر
اطريق ، حتى هوى خائرا على اكياس الدقيق هناك . ودفع
احد الاشخاص من الداخل « عربيد » في سترة محترقة ،
دقة كالكيس ، وعندما سقط بين الاكياس ثم نهض ووقف

على قدسيه بالكاد لاحظ عليه ايفان بتروفيتش جزمة لبادية
جديدة لم تكن قيد الاستعمال من قبل .

صاروا يقدفون الاكياس الى ما وراء الباب رأسا ،
يلقون بها كيفما اتفق لمجرد ان ينتشلوها من برائن النار .
وهي هنا ، على بعد خطوتين من المستودع ، ليست في امان
على الاطلاق . فاذا هوى السقف السليب عليها ستهلك عن
آخرها تحته . شرع ايفان بتروفيتش يسحبها الى السباح .
لم يمد يحملها على كتفيه ، بل يرفعها على يملكه اللين وبركض
بها على فموا اخرق ويلقيها على المنحدر ، وهناك يتلففها
شخص ما ويحملها الى الطريق . ومن طريقة التلطف الموجب
على الجنب ادرك ايفان بتروفيتش ان ذاك الشخص هو
سافيل البثور اليد .

سافيل فلاح موفور الصحة معتدل العضلات لم ينهكه
الميل بعد رغم سنه الكبيرة . وقد جهد اليوم بهمة ونشاط
وبلا كفل ، دون ان يغفل كيس من يده الوحيدة القوية
كالكمامة .

فاهى احدهم ايفان بتروفيتش بصوت ثمل . وطالما
بلغ الصوت مسامعه فالمنادى لا يستغيث ولا يحترق بالنار .
لم يلفت اليه ، لان الوقت صار يحسب بالدقائق الاخيرة .
ولسبب ما اراد ان يعرف هل الوقت ليل ام صباح ؟
وقاوم رغبة شديدة في السقوط على الارض والتقاط الانفاس .
تطلع الى التلة التي يتسلج من ورائها النجر وخيل اليه ان
الغلام هناك اخذ يتنقع ويبتل مكفهر . يعني ان الصباح
يشك . وبحسب نظرتة الغائمة تلك قعر وكاد يسقط .
والغريب ان كل شيء . حواليه صمت فجأة وغاص ايفان

بتروفيش في سكون مطبق لا احد من الناس فيه ، ثم داهمته الاصوات من جديد واخذ الرجال يتراخضون حوله . وعند ذاك كانت كل صيحة تلتقي في نفسه رجما متقطعا ، وكأنما تهدف اليه وتحتقر فيه ، وعند ذاك رأى ، دون ان يبصر ، الباحة كلها تحترق بطوق نارى مكتمل ياتهم كل المستودعات ، والطوق مكشوف من جهة السياج وفي داخله دوات من الفوضى والاضطراب .

وفي الركن الذى اندلع منه الحريق كانت الارعاء السفلى تستمر . وكانت هناك على ما يبدو فجوة ثغث اللظى الى الجانبين كمسالة الدلاء المريضة المحنة ، وعلى نهايتها يلوح من خلال اللمب شبحان اسودان ، كدلوين ، هما آخر مستودعين في الطرفين . المستودع الذى يتصب على الطريق الى الحانوت اخلاء الرجال حتى النصف ، ومن هناك يتعالى صوت كوزيلتسوف آمرا ناهيا . كانوا يهجمون على النار ويهجمون منها ويمدون الكرة فيكنسهم الفتح والسمار كالبموض .

الصوت الاساسى المنبعث من هياج النار ليس دوبا او صفيرا او حواء ، بل فرقة ، طقطقة وهيبة وكان السنة اللمب تنبجس من الخشب وتثقف الى عنان السماء فتزقها .

والجميع يتصايحون ويصرخون في الباحة .
فالبا مسؤولو المستودع تطالب فودنيكوف باستدعاه لجنة تجري ، دون ابطاء ، جردا لما امكن انقاذه . فيرد عليها بوريس تيموفيتش فودنيكوف بسمال متقطع اجش :

- اى لجنة ؟ انت مجنونة ؟ اى لجنة الان ؟ انظروا اليها !

- كلا ، انظر انت - نشرت قاليا يديها ولوحث بهما الى ما حواليهما - انظر ، ماذا بقى ؟ الصناديق كانت محسوبة - اومات الى صناديق الفودك - كانت ثمانية وستين ، فكم بقى منها ؟

- فلتذهب صناديقك الى الشيطان . من الذى اخلاها ؟ لم اكلف احدا باخلاتها . كان يجب ان تحترق . - كلا ، فليذهب وجالك الى الشيطان . اما هذه الصناديق

فهى محسوبة علي ، انها في رقبتي .
وانها على كل ما في رقبته غير هذه الصناديق ،

واعطى طوقا ساخنا حل تلك الرقة النعيفة ، فانتحبت من جديد . وعندما ازاحت واحيتها عن وجهها لم تجد فودنيكوف جنبها . كان المم ميشا خامبو يراوح هناك وهو ييذل محاولة يالسة للتعبير عن عطفه على الفتاة المسكينة .

- احرسها ، يا عم ميشا ، ارجوك - طلبت منه للمرة العاشرة وراحت تجمع شتات العاجيات في كومة واحدة ، وساعدها المم ميشا .

تمالت الصيحات والشتائم في مستودع الدقيق . فبدن الصباح والسباب لا تسمير الامور . اخذ الرجال يصرفون لحظات اطول في الخارج ، بعد ان يلقوا باكياسهم ، لكي يلقوهما جرة من الهواء . وكان ايفان بتروفيش كالسابق منهكاً في عمله ، دون ان يشعر بوجود يديه او قلبيه . وفي وتيرة الجهود المحمومة ضاع قلبه ولم يمد يقفز بين الضلوع . لم يمد ايفان بتروفيش يذكر شيئا سوى القاء الاكياس على ظهره وحملها وديها . وكانت هذه العمليات

البيلة الثلاث التي تكررت بلا حساب قد قسمت ركضاته الى ثلاثة انفاس .

عندما التقى بالكيس لاحظ في السياك المشوش فشاذا يختلف عن ذلك السياك . والاصح انه احسن بالنشاز في البداية ثم رآه . لمح شخصا يتعد اكثر من الزوم عن السياك المشوش العام ، رآه يتوجه صوب الحمام حاملا كيا . هبط ايفان بتروفيتش الى الطريق . عاد الشخص وانتفض عندما رأى ايفان بتروفيتش يتنظره ، وغد السير . فان ساقيل ليس من الذين يمكن ان يرتبكوا . وباده ايفان بتروفيتش قائلا :

- ماذا تفعل ؟ حل انت من الجياج ؟

- وهل رأيتني ؟

- نعم ، رأيتك .

- لم تر شيئا . قدمت هريضتك ، فانظر الى تلك

الجهة اذن . مفهوم ؟

وهبطت يده الوحيدة الثقيلة على كتف ايفان بتروفيتش .

لماذا يطلبون على كتف الانسان عندما يريدون ان يوحوا له بما لا يليق ؟

اغلصوا في اغلاء المستودع الاخير بالكامل وانفذوا الى الخارج متصايحين هائجين مسمرين . كان افونيا برونيكوف المعروف بهدوئه ورزاقته يمزق مثل الشيطان الرجيم ، وهو مشعث ملطخ بالطحين والحمام . تطلع اليهم ايفان بتروفيتش بدهشة واحذار وكأنما كان يتفرج مكتوف اليدين . هوى

شي . داخل المستودع الخالي فهدو الهيب وشهق الى اعل وربط آخر حلقة وصل بين كل مستودعات المواد الغذائية فاستوى فوقها تيار ناري هادر رفيع .
وبلغ احدهم حدود الهياج فطلق بنشد بصوت ابع مستيت :

لن ... يستسلم .. جندنا .. الاشوس ..

لن يطلبوا الرحمة .. من العدو ..

كان العم ميشا خامبو قد رأى ما رأى في هذه البيلة الساخنة ، ومع ذلك فرك عينيه ليتأكد جيدا مما يرى الان : اثنان يلعبان كرة القدم . الكرة مفشوشة مشقة مثل صرة كبيرة هشة لينة تتقاذفها الاقدام وتظل تندرج متعرجة بالرنسات والضربات حتى تبلغ السياك المهدم . تلفت العم ميشا حوايه ليجد احدا يريه ما رأى ، ولكن لا احد هناك . في تلك الاثناء ارتطمت الكرة بالسياج وتدل منها شي . لم يطل خامبو التفكير فهرع الى اللاعبين . كان احدهما قد التقط الكرة بيديه ورمها الى الشارع وقفز في اثرها ، فقفز العم ميشا ليلحق به ، وعندما انحنى ذلك ليرفع الكرة داهمه العم ميشا وهوى بيده السليخة على ياقته فرفعه من الارض كطفل صغير وانضح له ان الكرة صرة بالفعل تلوح منها كالمروحة اطراف اقمشة مشجرة . اما ذلك الفتى فهو صوفيا .

وما كاد خامبو يتأكد من الصرة ومن هوية الفتى حتى تلقى ضربة في جنبه . تمكن ان يسحب يده ويجبر صوفيا من رقبته ويضفطه اليه ، فصاعداً ذلك كالخنوص وهو يقفز

ويحاول ان يلرح المجوز ارضا . ومن جديد توالى الضربات باداة ثقيلة على العم ميشا . اواد ان يرنع رأسه ليرى من الذى يضربه ، لكنه لم يتمكن ، وبد يده اليمنى التى لا تقاومه ليحتس بها ، والضربات تنهال عليه متوالية ...

على هذه الصورة رأها ايغان بتروفيتش فيما بعد ، واثنين متعاقبين على الثلج المدعوك ، صونيا الصغير معقوف البدن مقرنسا والعم ميشا خامبو واقدا فوقه برأس ملثو . والمدق على بعد خمس خطوات منهما .

١٨

لكل شئ نهاية . انحصرت الليلة اللظيمة ، وحل الصباح ، وهبط اليبب فى نور ابيض وخفت متبا وهو يجهز على البقية الباقية مما يصلح للاشتغال . الصباح دافئ كالح ، والدخان الخائف الرامى ينشى البلدة ولا يريد ان يراقها . وعلى الضفة وعلى جليد النهر يتصاعد الدخان من الجمرات الداوية السوداء . وفى الباحة القذرة الموحلة ترسم من الجانبين تضاريس الحريق الزهيب المريضة التى لا تزال تنفث دخانا وتمثل نهاية مفزعة لا امل فيها ولا رجعة . اما الحانوت الاخضر الصغير الذى ظل سالما فليس بوسمه ان يجلب السلى على الاطلاق ، بل كان منظره المنزل يضيف المزيد من الحرق والالم والحسرة .

ظلت الحاجيات التى امكن انقاذها من مستودعات

٩٤

التموين متروكة وسط الباحة تحت مشمع عريض جديد . واسدل مشمع آخر على جشنى العم ميشا خامبو وصونيا دون ان يفصل بينهما . وجنب المشمعين وقف الحراس لا يسمحون لاحد بالاقتراب ولا يتكلمون مع احد .

كانوا ينتظرون وصول رجل المليشيا والمحقق . كانوا ينتظرون لجنة واخرى وثالثة ، لجانا متوالية لن يكون لها آخر ... كانوا ينتظرون رؤسائهم المحليين وكبار الرؤساء القادمين من بعيد . فمن بداية ساعات اللوام بشوا البرقيات الى كل الجهات . توقفت كل الاعمال ، وساد السكون الكراج والشوارع ، ولا صوت يتناهى من المستودع السفلى . الكل ينتظرون ...

عاد ايغان بتروفيتش من الحريق ولم يرقد على الفراش . وجد القرن سائنا ، فقد تمودت اليونا حتى فى اثناء القصف الجوى على الاهتمام بشؤون المنزل . وفى الحال وضمت على المائدة ما تيسر من طعام ، ثم انتحبت بمرارة وهوت على السرير .

جلس ايغان بتروفيتش دون ان يس الطعام ، ثم خلع جزمته وارتنى اخرى وتطلع من خلال النافذة الى الدخان القادم من جهة الضفة وخرج . مضى الى افونيا ليراه قبل ان يغط هذا فى نوم عميق . لكن افونيا ما كان يريد ان ينام . ابنته تفصل له كمتين متخترقى الدم ، صيقتين كجرحين ، على الجبين والذقن وتسمعهما بمرهم . وعندما

ترفع يديها عنه يحتمس جرعات من الشاي من قفح معدني ضخم .
وسأل ايفان بتروفيتش :

- ما العمل يا افونيا ؟ هل تعرف ما ينبغي ان تفعل
ام لا ؟

- سنظل نعيش - اجاب افونيا منكش الوجه من لمس
الجراح او من قلق الروح - العيشة في هذه الدنيا قضية
صعبة يا ايفان بتروفيتش ومع ذلك ... مع ذلك يجب ان
نعيش .

وسأل بدوره ، بعد جرعة من الشاي :

- وماذا قررت ان تفعل ؟

- سنعيش - كرر ايفان بتروفيتش بايجاز .

١٩

الارض الملقعة بثلج رخو وادعة كثيفة محبوسة الانفاس
وكأنها تمناني من فاجعة البارحة . وهي تنحدر من اثلة بحقل
مكشوف وتتحول الى جليد خلف صنوبرات متباعدة . وعلى
الثلة تنتصب غابة تنكشف من لمحتين قائمتين يحتضنهما
الحقل المكشوف . وفي الجهة التي قصدها ايفان بتروفيتش ،
تاركا البلدة وراءه ، غابة اخرى غير كثيفة يبدأ الخليج من
بعدها . جنب الفسحة الاولى مقبرة تفصلها عن الطريق ،
سيدفنون فيها بعد ايام فلاح قرية يفروفيكا الذي انتهت
آلامه وذلك الفتى المنحوس المجهول الذي ضيع اسمه .
الاحياء يعرفون اين يدفنون موتاهم ، لكن الارض التي تحنو
على الاقرباء والفرباء ، على الابرياء والمفنين ، تحكم

٩٦

عليهم بنفسها ، وفق قوانينها ، وتقرر نتيجة ما يصير
اليه اولئك وهؤلاء .

السكون يسود المكان ، سكون مطبق كما في ماء راكد
يستمد لتحرك من جديد . لم يبلغ دخان البلدة هذه الهمّة ،
والرؤية واسعة لمسافة بعيدة في ضوء النهار الذي بدأ مترددا
مكبوتا .

السماء ثقيلة ليست فاصدة البياض ، كالحقل الذي تحنو
عليه ، واخذ ثلجه يذوب . وهي تميل بانحدار طويل الى ما
وراء نهر انقارا ، نحو مغيب الشمس . وهناك ايضا تنتصب
غابة قائمة ، لكنها هي الاخرى غير كثيفة .

الا ان صنوبرات الشاطئ اشرايت ببساطة مستجيبة
لتباير الدفء ، وفاحت رائحة سخونة الهواء ، والثلج بهبط
لرجا تحت القديسين ، وغليط النهر الابهد ينقو اكثر
ليونة وميوعة . وجد الربيع سبيله الى هذه الارض ايضا ،
فاستيقظت واستمدت لتنشئ بما هلك وما ظل على قيد الحياة ،
بما زاد في عدد الناس وما نقص ، استمدت لتجميع كل ما
سلم ونجا في كيان حي واحد ، في جنين اعدت العدة له
كي يظهر الى الوجود . ستدفا الشمس وتنفرج الارض من
جديد ، كمادتها كل ربيع ، وتنتفخ خضرة وزهرا ، وتقدم
ملكوتها للعمل حسب الاتفاق ناسية ان الانسان لا يلتزم
بالاتفاق .

لا ارض بلا ثمر . فالارض ليست عقيمة .

ايفان بتروفيتش يغذ البر يستمد من البلدة ، وعن
نفسه ، كما خبل اليه ، وهو ينفوس في الوحدة الى ابد
واعقب . لم يكن شعوره بالوحدة نائجا فقط من عدم وجود

٩٧

احد جنبه ، فهو لا يجد فى داخل نفسه سوى الخواء والرثيب . كان يسير على اية حال برفق وطلاقة وتوازن وكأنما
 حتر بالصدفة على وتيرة المشى ووثيرة التنفس ، ووجد
 الطريق المستقيم فى آخر المطاف ولا يعلم هل كان ذلك
 رضوخا ام تمنا ، احجابا وقتيا ساحرا ام تحجرا بدأ يتكلس .
 فاحت رائحة الصنوبر ، لكن الذى تشم تلك الرائحة ليس
 ايفان بتروفيتش الانسان ، بل شئ ما آخر ، شئ اندمج
 برائحة الصنوبر وذاب فيها . وانشأ نقار الخشب يطرق على
 جذع شجرة ضخمة يابسة ، ولم يكن هو الذى يطرق على جذع
 الشجرة ، وانما القلب يستجيب لنداء ما فى عجالة وامتنان .
 ومن بعيد رأى ايفان بتروفيتش نفسه : انسانا ضئيلا تائها
 يسير على ارض الربيع ، يمش من الشور على داره ، وسينمطف
 الان وراء الاجمة ويختفى الى الابد .
 والارض صامتة ، لا هى تستقبله ولا تودعه .
 الارض صامتة .

ماذا هناك يا ارضنا الصامتة ؟ الى متى تظلين صامتة ؟
 وهل انت صامتة حقا ؟

الى القراء

ان دار « وادوغا » تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
 وابدعتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ،
 وطباعته ، واعرستم لها عن رغباتكم .
 العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
 موسكو - الاتحاد السوفيتى

وظلت مخطوطاته تنتظر في الجرار امدا طويلا . لكن
اصدقائه استنسخوها وقراءوها .

وقد حان وقت الاعتراف شالاموف وحقيقته القاسية .
فان « قصص كوليمان » كتاب مخطوط بألم الفؤاد ، كتاب
عن افسان اجناز جميع القرن العشرين ...

نشر شالاموف ظاهرة فريدة من نوعها في الادب الروسي .
وهو يتميز عن النشر « الروسي » التقليدي بفدر ما تتميز
الخبرة القاسية في اوسفيتسيم وهوروشينا وكوليمان عن احداث
« العصر الذهبي » في القرن التاسع عشر . يقول شالاموف :
« كل قصة من قصصي صفة الى السالينية . والصفحة
يجب ان تكون خاطفة رنانة . كل قصة من قصصي هي
الصدق المطلق . انه صدق موثق ... » .

في عام ١٩٨١ منح شالاموف جائزة نادى القلم (فرع
فرنسا) وهي جائزة الحرية .

فالام شالاموف . قصص كوليمان

فالام شالاموف (١٩٠٧ - ١٩٨٢) من اكبر الكتاب
الروس في القرن العشرين . ويمكن ان تقارن مع دوستويفسكي
من حيث تأثيره الادبي ، فقد وصف بالقوى شكل آلام الانسان
ومصائر المعذبين الذين لم يكونوا ولم يتمكنوا لم يصبحوا
ابطالا .

مصير فاللام شالاموف يمثل احدى فواجع عهد ستالين .
فقد اعتقل منذ ان كان طالبا بوشاية كاذبة وامضى سنوات
طويلة في اقلع معسكرات سيبيريا ، حيث عمل في مكان
ذهب ومناجم الفحم وفي قطع الاشجار ... وكان فادوا ما
يعود الثامن احياء بعد تلك « الاشغال » . لكن شالاموف ظل
على قيد الحياة . كان رجلا باسلا قوى البدن تمكن من
الحفاظ على صفاء النفس حتى في ظروف تفوق طاقة البشر .
في السنفى تراسل مع الشاعر المعروف بوريس باسترفاك .
ففي عهد النصف والظلم والاستهتار واهانة الانسان تمكن
هذان الرجلان في الكلام عن الفن الرفيع ، عن الشعر
ومغزى الحياة . وتقدم باسترفاك المساعدة الى شالاموف على
قدر الامكان ، ليس بالكتب والطرود وحدها ، بل ، وهذا
هو الأهم ، بالتأييد والثقة في موهبة شالاموف ، شاعر
سجون كوليمان ومؤرخها .

الا ان الاعتراف بموهبة شالاموف لم يأت رأسا . وحتى
بعد ان اعيد اليه الاعتبار لم تنشر له المجلات سوى قصائده .

ميخائيل بولفاكوف . المعلم ومرغريتا

تحل في عام ١٩٩١ الذكرى العشوية لمولد ميخائيل بولفاكوف (١٨٩١ - ١٩٤٠) احد اعلام الادب السوفيتي . وبهذه المناسبة ستصدر باللغة العربية رواية الكاتب « المعلم ومرغريتا » احدي تفانس الادب في القرن العشرين . واعتبر المؤلف رواية من اهم كتبه . وقد دون عل هامش مخطوطة احد فصول الرواية العبارة التالية : « لن اموت قبل انهاءها » .

ميخائيل بولفاكوف كاتب ذو مصير مأساوي . اذ توفي منذ نصف قرن مضى دون ان يرى جل مؤلفاته ، ومنها « المعلم ومرغريتا » ، وقد أخرجت الى النور . والآن طبقت شهرته الافاق حتى صارت تقارن مع شهرة الكتاب الكلاسيكيين ؛ صدرت كتبه ابان الاعوام الاخيرة في جميع البلدان الكبرى . وتصدر مؤلفاته بسجلات عديدة في الولايات المتحدة ومانيا الاتحادية والعديد من البلدان الاخرى . ويقدّر عدد الاعمال العلمية عن بولفاكوف بالآلاف وهذا العدد يزداد باطراد .

في رواية « المعلم ومرغريتا » التقت في نسج منجم موحد ثلاث شرائح فنية هي : موسكو الثلاثينيات بكل التفاصيل المنزلية والمعيشية للحياة في العاصمة ، والفصول « القديمة المهد » للرواية حيث شخصية يسوع المسيح (واسمه في الرواية - يشوع الناصري) ، وتبشيره بالخير وموته الفظيخ ، واخيرا قصة حياة وحب المعلم ومرغريتا . وتتناهى هذه الرواية الفلسفية الفريدة من نوعها بالنسبة

لادب القرن العشرين من الواقعية الخيالية : من الابالسة والعفاريت ، والتاريخ الاسطوري وروح المعاصرة الحيوية والمسيح والشيطان . وقد كتبت منذ نصف قرن مضى وانسجت بصورة ساطعة غير عادية مع واقعية المصير الدري ، وشحذت الى اقصى حد المشكلات والاخلاقية ، مركزة على سلوك الانسان ومستوياته وخياره .

« انا معجب ببولفاكوف » - بهذه العبارة المقتضبة عبر غابرييل غارسيا ماركيز عن احساس ملايين القراء لدى مطالعتهم مؤلفات الكاتب السوفيتي الفذ .